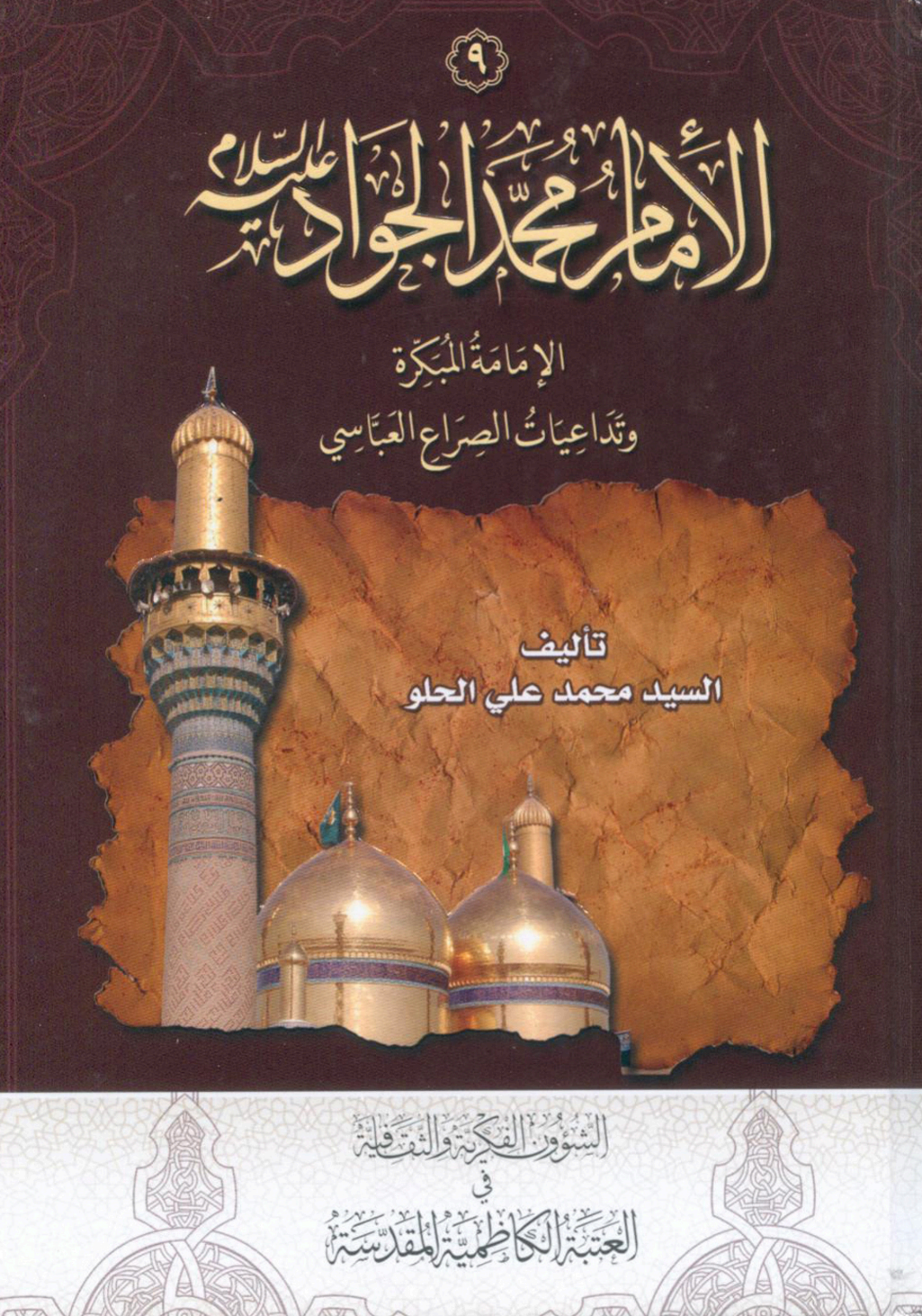

٩
الإمام محمد الجواد عليه السلام
الإمامة المبكرة
وتداعيات الصراع العباسي
تأليف
السيد محمد علي الحلو
الشؤون الفكرية والثقافية
في
العتبة الكاظمية المقدسة

الإمام محمد الجواد عليه السلام

الإمامة المبكرة..
وتداعيات الصراع العباسي



هوية الكتاب

اسم الكتاب: الإمام محمد ا لجواد عليه السلام الإمامة المبكرة.. وتداعيات الصراع العباسي

المؤلف: السيّد محمد علي الحلو

الناشر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة - الشؤون الفكرية والثقافية

موقع العتبة: www.aljawadain.org للمراسلة: fikriya@ aljawadain.org

الطبعة: الثانية ١٤٣٣ هـ

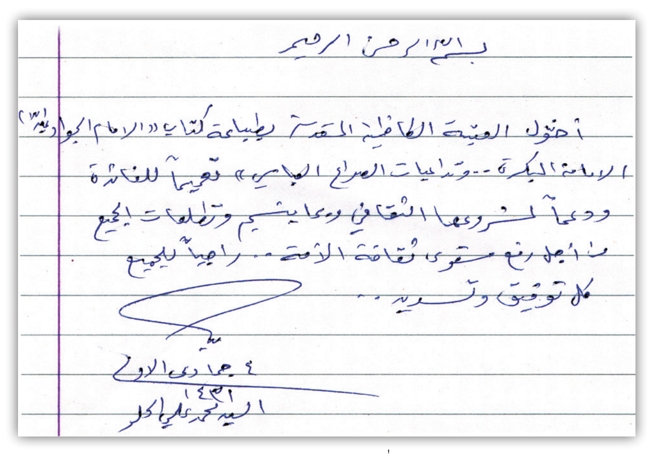
المطبعة: دار المرتضى ـ بيروت.



الإمامةُ المبكّرة وتداعياتُ الصراع العبّاسي

تأليف

السيّد محمّد علي الحلو



بسم الله الرحمن الرحيم

أخـوّل العتبـة الكـاظميـة المقدسـة بطباعة كتـاب (الإمام الجـواد عليه السلام، الإمامة المبكـرة.. وتداعيـات الصراع العباسـي) تعميماً للفائدة ودعماً لمشـروعها الثقافي وبما ينسجم وتطلعات الجميع من أجل رفع مستوى ثقافة الأمة.. راجياً للجميع كل التوفيق والتسديد..

٤/ جمادى الآخرة / ١٤٣١هـ

السيد محمد علي الحلو

الإهداء

سيّدي يا أبا محمّد.. أيّها الرضا

من عبق الإمامة تصنع ملاحم الولاء..

وهوية الانتماء تحكي فصول الدفاع

عن تاريخ المضرّج بالدماء..

فإليكم -سيّدي- تنتمي الكلمات..

وتطوي مسافات الزمن..

لتحكي صراعات الماضي مدجّجة

بمحن الحاضر في الإنتماء..

محمد علي الحلو

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله الذي هدانا الى سبيل الرشاد واليقين، وأوجب علينا التمسك بصراطه الحق المبين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على النبي محمد الأمين، خير الورى وسيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الهداة الميامين أئمة المؤمنين، لاسيما بقية الله الحجة بن الحسن إمام العصر والعالمين عجل الله تعالى فرجه الشريف.

لا يخفى على المتتبع والباحث عن الحقيقة إن الله عز وجل عندما أرسل رسله وأنبياءه كان لا بد أن يجعل من بعدهم أوصياء وخلفاء كي لا تخلو الأرض من حجة، يبينون للناس أوامر الله ونواهيه وأحكام الشرائع السماوية في حالة غياب هذا النبي أو انتقال ذلك الرسول الى الرفيق الأعلى، كما جعل الله عز وجل للأنبياء وأوصيائهم معاجز وكرامات تختلف باختلاف الزمان والمكان لتعزيز مواقفهم ولإثبات ارتباطهم بالسماء أمام الذين كان في قلوبهم مرض لعلهم يهتدون.

من هنا كان للإسلام ما كان لقبله من الأديان، لذا فإننا نجد أن رسول الله ﷺ قد حرص على تربية الأمة على ثقافة الخلافة والوصية، وإن الدين لا يستقيم إلا باثنين لا ثالث لهما قد تركهما نبي الرحمة للأمة ليتمسكوا بهما فلا يضلوا من بعده قائلا: (إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا، حتى يردا علي الحوض) وهو من الأحاديث المتواترة وقد رواه علماء الفريقين بمعنى واحد ولكن بألفاظ متقاربة، كما أثبتت كتب الحديث والتاريخ الكثير من الأحاديث عن رسول الله ﷺ تخص الإمامة وأن الخلفاء من بعده اثنا عشر[1] كلهم من قريش، بل هناك أحاديث بيّن فيها ﷺ أسماء هؤلاء

(١) جاء في صحيح مسلم ج٦ ص٤ قول رسول الله ﷺ: لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش.

الخلفاء وهم أئمة الهدى عليهم السلام ومنهم إمامنا محمد بن علي الجواد عليه السلام(١).

ولإغناء المكتبة الإسلامية بالمصادر التي تتحدث عن الإمام الجواد عليه السلام فقد أولت الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة اهتماما بالغا لرفد الحركة الفكرية والثقافية بتراث أهل البيت ونشر علومهم ليجد القارئ الكريم والمهتمون بالشأن التاريخي لمرحلة من مراحل الأمة في هذا الكتاب جلّ ما يرتبط بعصر الإمام الجواد عليه السلام والتداعيات التي رافقته منذ ولادته وحتى استشهاده واستعراض جملة من الخصائص التي اتصف بها إمامنا الجواد الذي شابه بها بعض النبيين عندما أوتي الإمامة صبياً، بالإضافة إلى الجانب الأدبي والوجداني وما جادت به قرائح الشعراء الذين استعرضوا فن المديح والرثاء، ونحن إذ نقدم الطبعة الثانية للقراء الكرام –بعد أن قامت مؤسسة السبطين عليهما السلام العالمية بإصدار الطبعة الأولى– لا بد للإشارة هنا إلى أن المؤلف سماحة السيد الحلو قد قام ببعض الإضافات والتنقيح لبعض فصول هذا الكتاب..

نسأل الله الهداية والرشاد والتوفيق والسداد في نشر فكر أهل البيت عليهم السلام وجعلها متاحة للقاصي والداني لتستفيد الأجيال من علومهم التي كانت وما زالت منهلا لا ينضب ورافدا من روافد المعرفة إلى يوم يبعثون.

الشؤون الفكرية والثقافية

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

١٤٣٣ هـ

(١) راجع بحار الأنوار ج٣٦ ص ٢٦١ إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

لم تكن دراسة حياة الإمام الجواد عليه السلام تنطلق من الحاجة إلى قراءات التاريخ الإسلامي بما ينسجم وتاريخ التحدّيات السياسية التي رافقت بلورة نظام الحكم والتنظيم السياسي الإسلامي، وإن كان ذلك أحد دواعي الدراسة كذلك، إلاّ أنّ قراءة حياة الإمام الجواد عليه السلام تمثّل الحقيقة الحرجة لمعطيات الظرف العام الذي يعيشه المسلمون آنذاك، فالإمام الجواد مثَّلَ تطلّعاً جديداً في العطاء العام للقيادة الإسلامية التي تقود الأمة نحو الهدف الأسمى والأكمل، فالإمامة المبكّرة للإمام الجواد عليه السلام كانت تحوّلاً جديداً في صياغة الأُطروحة الإسلامية للحكم، والتنظير لها بما يعطي قراءة جديدة للقيادة المعصومة التي تجاوزت الحسابات المادية؛ لكونها صياغة إلهية مسدّدة بغض النظر عن عُمر الإمام الذي يتولّى مهمّة الإمامة، بل يمكن أن نقول: إنّ إمامة الجواد المبكرة كانت تحدّياً حقيقياً لتقليدية الحكم العباسي الذي تجاوز مرحلة النضج والرشد للخليفة العباسي الوريث لحكم آبائه، فالخليفة العباسي كان يعيش محنة عدم النضج والتكامل، فإنّه ما أن وصل إلى منصب الخلافة بالوراثة التقليدية، حتى بذل الجهود في تربيته الخاصة لإنضاجه، ولكنّه رغم ذلك كان يعاني من تعثّرات الأداء في إدارة الدولة، ويؤول الأمر إلى استيلاء ذوي الحنكة السياسية من القادة والخدم والصبيان الذين يحيطون بالخليفة، فتدار الدولة على أساس مشتهيات هذا اللوبي أو ذاك، في حين تُثبت إمامة الجواد المبكّرة تحدياً كبيراً لتقليدية الوراثة العباسية، ولنظرية الاستحقاق الوراثي الذي يتقلّد من خلاله الخليفة العباسي منصبه.

وفي عمـــر مبكرة كان للإمام الجواد عليه السلام جولات صراع لإثبات أنّ الحق مع هذا الخـــطّ الإلهي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكانت المناظرات قائمة بين الإمام وبين مخالفيه بما يشكّل تهديداً حقيقياً للوجود العباسي، بل لوجود مدرسة الخلفاء المقابلة لمدرسة آل البيت المعصومة، وعلى هذا الأساس أخذ الصراع العباسي منحىً جدياً، فهو اليوم يواجه خطراً حقيقياً يطيح بكل مبتنياته، بل يمكن القول: إنّ إمامة الجواد المبكرة كانت ثورة تغلي وتتّقد دواعيها بشكل خفي، حتى في مشـــاعر العباسيين أنفسهم، إذ يرى هؤلاء أنّ الخلافة لا تنتقل بالوراثة النسبية التقليدية، بل هي قضية إلهية لا يمكن تجاوزها، والإمام الجواد الســـباعي أو الثماني من العمر يشـــكّل معلماً رئيسياً لهذا التحدّي الخطير، فقناعات العباسيين لإمامة الجواد المبكرة تســـير وفق قناعات الإنســـان بكل موضوعيته، واعتباراته عقلائية، ومعارضة العباسيين للإمام الجواد عليه السلام تسير وفق سياقات التنافس السياسي، فهم بالنتيجة في أعماق ذواتهم (المنكســـرة) يقتنعون بمعجزات الإمام، وبالتالي بأحقّيته في الخلافـــة والإمامة، إلاّ أنّ هذا التحدّي يعـــين إلغاء دورهم كحاكمين ويحيلهم محكومين تابعين.

من هنا نشـــأ الصراع العباســـي في قراءة متحدية لواقع أهل البيت عليهم السلام من قِبَل المأمون العباســـي، الذي كان يعيش قلق الاســـتحقاق الحقيقي الذي يجده في آل البيت عليهم السلام، وكذلك يعيش هاجس انتقال الســـلطة من البيت العباسي إلى البيت العلوي، وهو الهاجس نفســـه الذي يعيشه العباســـيون كذلك،فالمأمون مثلاً كان يمثل حقبة الصراع العباسي-العباســـي والإمام الجواد يمثّل التحدّي الحقيقي لسلطة العباسيين التي يقرأ جميع فصولها المسلمون، ولذلك فحياة الإمام الجواد عليه السلام مثّلت مقطعـــاً مهماً من الصراع بين فلســـفتين متناقضتين في الحكم والسياســـة والحياة بجميع مفاصلها، من هنا تنطلق أهمية دراسة حياة الإمام الجواد عليه السلام وتأريخه المليء بالتحديات العباسية والمؤامرات والفتن.

ومن العجيب أنّ هذا المقطع التأريخي قد أُلغيت فصوله التأريخية، أو اختفى منها الكثير، وصودر الأكثر: لذا تجد أن الباحث في هذا المقطع التأريخي المثير يجد الصعوبة بمكان في تحديد معالم الصراع والوقوف على مفاصله: لندرة النصوص أو إلغاء الكثير من فصول هذا الصراع، والتعتيم على هذه الفترة التأريخية الحرجة من حياة الأمة الإسلامية ؛ لذا تجد أنّ الدراسة عن الإمام الجواد عليه السلام لا تتعدى سوى استعراض مبسّط لجزء من حياته الشريفة، والباقي صادرته كتابات المؤرّخين بالإشارة الخاطفة لحياة هذا المقطع المثير، أو أخفت السلطات الحاكمة الكثير من هذا التراث التأريخي المهم، وبذلك فإنّ المؤرخ الإسلامي متّهم بالإهمال –على أحسن تقدير– لهذه الفترة المعطاء من حياة الإمام الجواد عليه السلام. أمّا على أساس الكتابات الشيعية فهي بالرغم من أنّها معدودة جداً إلاّ أنّها لا يتعدّى أكثرها عن إشارات لحياة الإمام الجواد عليه السلام عدا ما كتبه العلاّمة المحقق السيد عبد الرزاق المقرّم في كتابه الإمام الجواد عليه السلام: فكانت دراسة تحليلية في أكثر جوانبها بعيدة عن السرد، ومهما يكن من أمر فإنّ حياة الإمام الجواد عليه السلام تستدعي الوقوف كثيراً لقراءة هذا المقطع الرائع من (الإمامة المبكرة وتداعيات الصراع العباسي).

شعبان ذكرى ولادة الإمام زين العابدين عليه السلام
١٤٢٨هـ
محمد علي السيد يحيى السيد محمد الحلو

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

عندما يُختَزل التأريخ في شخصية معينة فإنك تجد الحاجة إلى ترسيخ معالم مثل هذه الشخصية ضرورة تدفعك إلى التأمل في تفاصيلها، وأنى لي أن أجد من تفاصيل شخصية الإمام الجواد عليه السلام ما يَختَزل لي ملاحم تأريخ.. هكذا وجدتُ الحقيقة عندما شرعتُ في الكتابة عن الإمام الجواد، ولعلّي أوقفتُ كتابتي هذه على مقطع مهم من حياتهِ العظمى وهو البحث في أبعاد إمامته المبكرة وهي تسجّل حضورها في أحداث التداعيات العباسية التي بدأت منذ الوهلة الأولى من تأسيس دعوتها المبنية على المقامرة وتهميش الآخر، والتزييف لحقائق الواقع، أو التهويل لأطروحة النسب العباسي، إلى غير ذلك من تداعيات الصراع العباسي الذي بدأ منذ البدايات الأولى لدعوتها السياسية المصطبغة بالصبغة الدينية كما هي اصطبغت بصبغة الدماء العلوية البريئة.. ولم أجد ما يشفع من نجاح دراستي سوى عرضاً لبعض معالم شخصية الإمام الجواد عليه السلام لتعطيها حلة من البحثِ تسترُ فيها جميع ما يعتري البحث من نقصٍ أو تقصيرٍ..

وقد وقفتُ على رغبة العتبة الكاظمية المقدسة لإعادة طباعة الكتاب بعد أن نفذت طبعته الأولى فزادني اعتزازاً واعترتني رغبة الإضافة والتنقيح قبل طباعته فأضفت ما وجدت من ضرورة الإضافة ليخرج الكتاب بما ينسجم وتطلعات القرّاء، خصوصاً والعتبة الكاظمية المقدسة تخطو خطوات نشر الثقافة (الكاظمية) المتعلقة بالإمامين عليهما السلام مما يدعوني إلى مواصلة الشكر مشفوعاً بالدعاء والتسديد لمثل هذا المشروع الثقافي الرائع وإلى مزيدٍ من الإبداع والعطاء..

ذكرى ولادة السيدة زينب عليها السلام ١٤٣١هـ

السيد محمد علي الحلو

الدعوة العباسيّة قراءة تأسيسية

دخلت الأُمة الإسلامية بعد هدنة الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ابن أبي سفيان منعطفاً خطيراً، إذ أُحيلت الخلافة الإسلامية إلى وراثة كسروية وملك قيصري، ومن جراء ذلك نشطت التيارات السياسية، وانطلقت توجّهات دينية وفلسفات ثقافية وتطلّعات طائفية جرّاء التعسفات التي أصابت الأُمة، وخلقت بذلك دواعيَ للتكتّلات السياسية، بل قل: للتجمّعات السرية التي روّجت من خلال نشاطها فكرة الانقلابات السياسية التي تأطّرت بإطار الثورة الداعية إلى التغيير بلافتة علوية تدعو للرضا من آل محمدٍ صلى الله عليه وآله.

ويبدو أن المتاجرة بهذا الشعار هو أقصر الطرق للوصول إلى الغايات المرجوّة، فكانت الدعوة العباسية حاضرة في الأحداث الإسلامية، بل من أقوى الأنشطة المعارضة للسياسة الأموية المجحفة بحقوق المسلمين؛ لذا فقد نجحت هذه الدعوة في استقطاب الكثير ممّن دعتهم مقتضيات النصرة لآل البيت بالانضمام إلى تكتّلات هذه الدعوة، ودخل الكثير ممّن كان ناقماً من التعسّف الأُموي الذي أذاق الناس وبال السكوت عن الظلم والقبول بالواقع المعاش، وسارع الآخرون الذين حلموا بالحصول على مناصب حرموا من التمتع بها في عهد الأُمويين. وكان الهاشميون أوائل طلائع التنظيم، فأبو هاشم بن محمد بن الحنفية هو صاحب فكرة التنظيم، والعلويون هم أهل (براعة الاختراع) لهذه الحركة الهاشمية، وآل العباس أتباع مستضعفون ينضوون تحت لواء العلويين في هذا التنظيم السرِّي الذي تزعّمه أبو هاشم بن محمد بن الحنفية، الذي عرّفه بعض المؤرِّخين بالزعيم الكيساني، وهو ما يمكن استبعاده في جوٍّ ملبّدٍ بغيوم الريبة حيال أي توجّهٍ خارج عن إطار عقيدة آل البيت عليهم السلام، ومن غير المناسب أن يخالف أبو هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب دين آبائه لينتسب إلى الكيسانية أو غيرها من التوجّهات العقائدية. نعم،

بالإمكان القول بأنّ التفاف بعض الكيسانية حول دعوته وهو في طور التأسيس السِرِّي جعل البعض ينظر إلى أبي هاشم بمنظار الكيسانية، ويبدو أن قتل أبي هاشم على يد سليمان بن عبد الملك جعل الدعوة السرية تنحو مساراً آخر اتخذته للحفاظ على خطّ هذه الحركة وسرّيتها، بعد أن تسلّم مهامّها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أي تحال الدعوة العلوية إلى دعوة عباسية، ومن الغريب في الأمر انتقال هذه الدعوة إلى محمد بن علي العباسي، بعد أن عهد إليه زعيمها العلوي أبو هاشم بعد موته، كما عليه أكثر المؤرخين.

ويمكن أن نتوقف عند هذه الحادثة الغريبة، فمن العجيب أن يتجاوز أبو هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي، وأن لا يعهد إلى أحد من الهاشميين حتى وقع اختياره على محمد بن علي العباسي، ومهما يكن من أمرٍ فإنّ توجّسات الريبة تحيط بتحركات هؤلاء العباسيين، وحادثة عبيد الله بن العباس لا زالت في ذاكرة الهاشميين بعد غدره بالإمام الحسن بن علي عليه السلام في حادثة الانهزام عن قيادة جيشه والالتحاق بمعاوية، واستيلاء عبد الله بن العباس على أموال البصرة حسبما ذكره بعض المؤرّخين، إلاّ إنّ بعضهم كانوا يُبرِّئون ساحة عبد الله وينسبون الحادثة إلى عبيد الله، أو إلى أحد أولاد العباس بن عبد المطلب. أو أنّ بعضهم اعتمد على مُسوِّغات هذا التصرف من قبل عبد الله بن عباس، وجعل ذلك في ضمن دائرة الممكن من الأعمال التي يرتكبها غير المعصوم، والذي يفسِّر الأُمور في ضوء اجتهاداته القاصرة، إلى غير ذلك من تعثّر العلاقة بين آل عليٍّ وآل العباس، وهذا ما يدفعنا إلى عدم ترجيح إمكانية إيكال الأمر بالوصية إلى محمد بن علي العباسي من قبل أبي هاشم بن محمد العلوي، وأغلب الظن أنّ الاحتمال عندنا يقوم على أساس إمكانية استغلال الفراغ العلوي في دعوة أبي هاشم، فربّما كان الاغتيال مفاجأةً أربكَ العلويّين دون أن يدخلوا في عملية انتقال الدعوة إليهم، أو أنّ محمد بن علي بن عبد الله بادر إلى استلام الدعوة بصورة خاطفة ليقطع فيها الطريق على الآخرين، ومنهم العلويين إلى استلام الدعوة.

أو يمكن القول: إنّ العلويين لم يزجّوا أنفســهم في مثل هذه التنظيمات (الحزبية) التي يعلمون فيها عاقبة أمرهم من مطاردة الأمويين لهم، ومن كون أنفاسهم تُحصى من قبــل عيون الأمويين الذين راحوا يراقبــون أدنى حركاتهم، ودليل ذلك: أنّ أبا هاشم بن محمد بن الحنفية وقع في فخ الأمويين، فكانت نتيجته التصفية والتنكيل، وذلك لمراقبة الأمويين تحركات العلويين ومنهم ابو هاشم، في حين يبقى بنو العباس بعيدين عن عيون الســلطة وتوجّســاتها؛ حتى اســتطاع محمد ابن علي أن يُكمل مســيرة الدعوة دون الوقوع تحت أنظار السلطة الأُموية، وبالفعل استمرت الدعوة العباسية حتى أتت أُكلها.

ولا يمكننــا أن نغفــل عن إمكانية محمــد بن علي التنظيميــة، ومعها يمكن أن نكتشف دقة تحركاته، وإمكانية اختطاف هذا العمل التنظيمي من صاحب الدعوة الرئيســي الزعيم العلوي أبو هاشم، ومن هنا يمكننا أن نرجّح أنّ هناك انقلاباً دُبّر في ليل على دعوة العلويين ليحوزها العباسيون، ويبقى الشك قائماً على كون محمد بن علي قد تزعّم التنظيم بوصية أبي هاشم بعد موته.

فالتنظيم الدقيق الذي عمله محمد بن علي يكشــف عن براعة ودهاء وحســن تدبــير في تحويل التنظيم باسمه، فقد عمل محمد بن علي على اختيار إثني عشــر نقيباً من الدعاة العباســيين: سليمان بن كثير الخزاعي، ومالك بن الهيثم، وطلحة بن زريق، وعمر بن أعين، وعيسى بن أعين، وقحطبة بن شبيب الطائي، ولاهز بن قريظ التميمي، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني، وأبو علي الهروي شبل بن طهمان الحنفي، وعمران بن اسماعيل المعيطي.

واختار ســبعين رجلاً يأتمرون بأمر هذه المجموعة، ولكنّنا لم نجد في هذه الأسماء مّن يمكن ترجيح علويته، فهؤلاء إلى العباسيين أقرب منه إلى آل علي، فضلاً عمّا نقرؤه في كتاب هذا الزعيم العباسي من تبصّر في أحوال البلدان، وتقلّبات شعوب الأمصار، وتوجّهات العامة في أقطار الدولة الإســلامية، وهو في ضوء رؤيته هذه

اختطّ العباسيون لأنفسهم خارطة الدعوة والتنظيم السري، فقد جاء في كتاب محمد بن علي ما نصّه:

أمّا الكوفة وسوادها فشيعة عليّ وولده، وأمّا البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكفّ، تقول: كُن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأمّا الجزيرة فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأمّا أهل الشام فليس يعرفون إلاّ آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وعداوةً راسخةً وجهلاً متراكماً. وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان، فإنّ هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة، لم تتقسّمها الأهواء ولم يتوزّعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل وهامات، ولِحىً وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة... وبعد، فإني أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق[1] .

والرسالة تقدم مسحاً شاملاً لشعوب البقعة الإسلامية، وتصنّف الناس على أساس الولاء السياسي والفكر العقائدي، الذي وزّع أهواءهم بين شيعة علويين كما في الكوفة، وبين عثمانية الدين كما في البصرة، أو حرورية مارقين كما في الجزيرة، أو مروانية الشام، وعمرية المدينتين، وهو بقدر ما يتشاءم في توزيعه هذا يتطلّع إلى أهل خراسان الذي ضمن ولاءَهم بوصفهم (أهل الصدور السليمة والقلوب الفارغة)، وهي إشارة إلى إمكانية استغلال الخراسانيين، والإملاء عليهم ولاء آل بني العباس بحجة النصرة لآل محمد والرضا لهم، وهم بذلك سيكسبون الجولة في دعوتهم هذه بحزب خراسانيٍّ جاهز الولاء...

(١) عصر المأمون، لأحمد فريد رفاعي: ٨٣.

إنّ ما يثير التساؤل حقّاً هو ما أشار إليه محمد بن علي العباسي، من أنّ توجّساً حذراً يحيط بولاء الكوفيّين في استجابتهم لدعوته، وهو ما يكشف لدينا أنّ الفجوة الكبيرة التي تفصل الكوفيين عن دعوة العباسيين هذه سببها ما ينظر إليه شيعة الكوفة من عدم الثقة في تحرّك محمد بن علي، بل عدم مشروعية تحرّكه، وهو ما يثبت لدينا قضيتين:

الأولى: أنّ كيسانية أبي هاشم بن محمد بن الحنفية مختلقة حقاً، إذ لو كانت حقيقةً لاستفاد من ولاء الكوفيّين الشيعة، والكيسانيين الذين يتمركزون في الكوفة كذلك، وهي نفس الدعوى الباطلة في كيسانية المختار الثقفي الذي ظنّ بعض المؤرّخين أنّه اتّخذ الكوفة منطلقاً لحركته؛ لما تضمّه الكوفة من المذهب الكيساني، في حين نجد أنّ محمد بن علي بن عبد الله يبعد احتمالية نصرة الكوفيين له وأنضمامهم لدعوته، ممّا يؤكد لنا أنّ كيسانية أبي هاشم غير ثابتة، وأنّ أنصاره من الكيسانية أمرٌ غير حقيقي.

الثانية: أنّ ابتعاد محمد بن علي بن عبد الله بدعوته عن الكوفيين الشيعة يثبت عدم ولاء الشيعة له، وبالتالي فهو على غير وفاق مع أبي هاشم بن محمد، الذي أثبتنا عدم كيسانيته، بل الأصحَ هو ثبوت تشيّعه حقيقة، وهي قضية توحي لنا بأنّ شكّاً يحوم حول مصرع أبي هاشم على يد سليمان بن عبد الملك، فلربّما كانت تصفية أبي هاشم على يد محمد بن علي بن عبد الله؛ ليحوز بحظوة قيادة الحركة التنظيمية العلوية، وليحيلها عباسية صرفة، وهي ما تشير إليه أخبار التنظيم السري من أنّ محمد بن عليّ اختار لحركته اثني عشر نقيباً غير معروفين بالولاء العلوي، بل يختصّون بولائهم العباسي، أي أنّ هناك انقلاباً نقل زعامة التنظيم بهدوء من القيادة العلوية إلى القيادة العباسية، وهو ما أردنا الوصول إليه بعد بحثنا هذا، وخلاصته:

إنّ قتل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية يحتمل أن لا يكون على يد سليمان بن

عبد الملك؛ وذلك إذا كان القتل بسبب ما علمه الأُمويّون من حركة أبي هاشم التنظيمية السرية لكان الآخرون الذين مع أبي هاشم قد تعرضوا للتصفية كذلك، ولو كان الأُمويون قد اكتشفوا التنظيم وأخذوا أبي هاشم بجريرة الحركة السرية والانقلاب على سلطتهم لكان أتباعه الآخرون معرّضين لنفس المصير، خصوصاً محمد بن علي بن عبد الله الذي عُرف بشخصيته ومنزلته الخطيرة في قلوب أتباعه، والترجيح القائم لدينا أنّ تصفية أبي هاشم بن محمد بن الحنفية حدثت على يد محمد بن علي بن عبد الله، أو بأمرٍ منه، ممّا حدا بمحمدٍ هذا أن ينقل التنظيم إلى العباسيين ويخصّهم وحدهم به، لذلك حاول أن يبتعد عن مركز الولاء العلوي وهو الكوفة، وأن يجد ولاءً جديداً يحمله الخراسانيون؛ وذلك بعد أن بذل جهداً استثنائياً ليربّيهم على دعوته، دون أن يُدخل مراكز الولاء العلوية الأُخرى كالكوفة واليمن وغيرها في خطّته.

هذا ما يمكن أن يكون رأينا في خصوص العلاقة بين أبي هاشم العلوي وبين محمد بن علي العباسي، أي أنّ هناك اختطافاً مفاجئاً حدث في نقل التنظيم السري من العلويّين إلى العباسيّين، ومنذ تلك اللحظة بدأ تنافس العباسيين للعلويين وتوجّسهم من وجودهم، وشعور العباسيين بأنّ هناك حالة غبن تحصل في مشاعر العلويين من استيلاء العباسيين على الجهد التأسيسي لحركة الثورة على الأُمويين واستئصالهم، وكأن شعور الذنب هذا لدى العباسيين ولّدَ عقدةَ الدونية والنقص لديهم حيال أبناء عمومتهم العلويين؛ ممّا دعاهم إلى ملاحقتهم ومحاولة استئصالهم ظنّاً منهم بأنّ العلويين يتطلّعون إلى سلطة مغبونة اختطفها منهم العباسيون في يوم من الأيام، ولعلّ هذا أحد أسباب العداء العباسي لآل عليٍّ ومحاولة تصفيتهم وملاحقتهم في كل مكان.

على أنّ التصفية العباسية للخصوم فلسفة نشأت منذ تولّي العباسيين زعامة التنظيم السري، وهي سليقةٌ تعاظمت لديهم منذ ذلك الحين، فحين نقف على وصية إبراهيم بن محمد بن علي المعروف بإبراهيم الإمام نجد أنّ حالة الانتقام

وتصفية الخصوم هي فلسفة الحركة العباسية، بل الدولة العباسية بعد ذلك، إذ استطاع العباسيون أن يفرضوا هيمنتهم على الخراسانيين بأخذ البريء بتهمة الجاني، لا على أساس اليقين، بل إنّ الشكل كان هو الحاكم في اتخاذ قرار تصفية الخصوم الحقيقيين أو الوهميين؛ لذا فقد سار أبو مسلم الخراساني على أساس وصية إبراهيم بن محمد بن علي العباسي المعروف بإبراهيم الإمام، على أن يقتل كلّ من ظنّ في معارضتهُ أو شكّ في ولائه، أو تحسّب من معارضتهُ مستقبلاً، أو ترجى إصلاح خطّتهم بتصفيته.

وخطورة الكتاب المرسل إلى أبي مسلم الخراساني تتبيّن حين أحصى المؤرّخون أنّ مقتل الخصوم أو المعارضين للعباسيين بلغ ستمائة ألف نفس قتلت صبراً، بغض النظر عن صحة هذا الرقم أو المبالغة فيه، وهو أمر ممكن في ظل الظرف السياسي الحرج الذي عاشتهُ الدعوة العباسية والتي لم تجد سبيلاً للنصر إلاّ بتصفية الخصوم وقتلهم بطريقة أبي مسلم البربرية، فقد جاء في رسالة إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي العباسي الموجّهة إلى أبي مسلم الخراساني ما نصّه:

> إنَّك رجل منّا أهل البيت[1]، احفظ وصيتي: انظر هذا الحيّ في اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يُتمّ هذا الأمر إلاّ بهم، واتّهم ربيعة في أمرهم، وأمّا مُضَر فإنّهم العدوّ القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تَدَع بخراسان من يتكلّم

(١) الظاهر: منّا أهل البيت، وهي اللغة التي خاطب بها العباسيون رعيتهم وأنصارهم، ودعوى أنّهم هم أهل البيت دعوى تتركّز فيها حالة العداء والتنافس لأهل بيت النبي من آل علي صلوات الله عليهم؛ لذا حاول العباسيون أن يسوقوا فكرة انتسابهم لآل البيت لعقدة النسب التي كان يعاني منها بنو العباس، فضلاً عن شعورهم بمنافسة= = آل علي بنسبهم التليد هذا، والذي يأخذ مأخذه من قلوب المسلمين فينزلونهم بمنزلتهم العظيمة، في حين يبقى العباسي يعاني من عقدة هذا الشعور، فهو يحاول أن يعزّز فكرة الإنتساب هذا بطرقٍ عدة ليقطع الطريق على المعارضة العلوية التي تطالبه -على الأقل- بشرف الانتساب للنبي وكونهم سلالته وذرّيته، فضلاً عن تعزيز فكرة أنّ آية التطهير تشمل حتى العباسيين؛ لأنّهم من آل البيت المقصودين في الآية: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣. فهم مشمولون بالعصمة، ومعنى ذلك: أنّهم منزّهون عن ارتكاب القبائح، وكلّ ما يفعله العباسي يدخل في نطاق العصمة، ولا يُعدّ خرقاً للمحذور الشرعي.

بالعربية فافعل، وأيّما غلامٍ بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله[1].

وبهذا انتهج العباسيون منذ ذلك الحين سياسة تصفية الخصوم، والقتل على الظنّة والتهمة، وسار خلفاؤهم على هذه السياسة من البطش والتنكيل بأدنى معارضة تصدر، فهم يتّهمون الجميع في ولائهم، حتى صنّف إبراهيم الإمام معارضي الدعوة العباسية إلى أربعة أقسام:

أولاً: ربيعة، فإنهم متّهمون في ولائهم للعباسيين، فـولاء ربيعة علوي يتطلّعون لآل عليّ ويتشـوّقون لخلافتهم، وهم بعد ذلك قليلو الحظّ من نصرة العباسيين وتأييدهم.

ثانياً: المُضَريّون، وهم أصحاب ولاءٍ أُموي، لا يَرون لغير الأُمويين بديلاً؛ فلذا عبّر عنهم بأنّهم (العدوّ القريب الدار).

ثالثاً: كل من تكلّم العربية، والظاهر أنّ ذلك إشارة إلى أنّ التشيّع في خراسان عربي الأصل، والذين يتكلمون العربية هم من شيعة علي، بل هم نواة التشيّع في خراسان، لذا فإنّ إبراهيم الإمام يتوجّس من كلّ من تكلم العربية، وهذا التحذير أثبت أنّ هوية التشيّع هي العربية، وهو أمر يشير إلى أولئك البائسين الذين ينظرون إلى أنّ التشيع فارسي الأصل، وأنّ كل شيعيٍّ يحمل معه الهوى الفارسي، في حين يطالعنا هذا النصّ خلاف ما أشاعهُ بعض المؤرّخين الجدد الذين يحملون في عباراتهم تهمة الفارسية لمذهب التشيّع، بل بالعكس، فإنّ تشيّع الخراسانيين عربي الأصل وإن كان ينتسب إلى العرب بالولاء، ولذا أشار إبراهيم الإمام على أبي مسلم أن يُخلي خراسان من العرب الذين هم شيعة علي.

رابعاً: اليمنيون، فهم معروفون بمقامهم ومنزلتهم في خراسان، وهم وإن كانوا شيعة

(١) عصر المأمون، أحمد فريد رفاعي: ٨٤.

عليٍّ إلاّ أنّ الدعوة العباسية لا تتمّ إلاّ باستقطاب هؤلاء اليمنيين إلى هذه الدعوة الجديدة؛ ليضمنوا ولاء الخراسانيين لبني العباس، فإقناعهم يتطلّب أمراً كبيراً وجهداً استثنائياً تتطلّبه كفاءة أبي مسلم الخراساني. وهنا نقف على جهود اليمنيين –شيعة أهل البيت– وهم أشعرية اليمن في بذل الجهود الأولى في تشيّع الخراسانيين الفرس، وبذلك فالتشيع الفارسي عربي الهوى والهوية.

أبو سلمة الخلاّل العباسي الكوفي المتمرّد

وتنتقل الدعوة العباسية منعطفاً جديداً بعد مقتل إبراهيم الإمام، الذي أوصى إلى أخيه أبي العباس السفّاح، والانتقال من الحُميمة قرب المدينة -التي اتخذها العباسيون منطلقاً لدعوتهم باستقبال الحجيج القادمين من كل البلدان ليطرحوا عليهم دعوتهم بعيداً عن عيون الأُمويّين ورجالهم- إلى الكوفة ذات الولاء العلوي، وقد انضمّ في هذه الأثناء رجلٌ كوفي يسمّى بأبي سلمة الخلاّل، وعمل مع العباسيين وساعدهم وهم في الكوفة، إلاّ أنّ أبا سلمة الخلاّل هذا عَدِلَ عن الدعوة العباسية وانحاز إلىالعلويين. ولم يقف المؤرّخون على أسباب هذا العدول المفاجئ، إلاّ أنّنا نحتمل أنّ أبا سلمة الخلال حينما دخل إلى الدعوة العباسية السرّية دفعه ولاؤه لآل البيت ظنّاً منه أنّ العباسيين يمثّلون تطلّعات العلويين وآمالهم، إلاّ أنّه اكتشف بعد ذلك عداء العباسيين لآل علي والتخطيط لمحاولة تصفيتهم، وحقدهم غير المبرَّر لآل البيت عليهم السلام، وهم مع ذلك يسعون في جملة أهدافهم إلى القضاء على المجموعة العلوية المنتسبة لآل البيت، والتي تتحرّك الدعوة العباسية على أساس النصرة لها، وهو نفاق سياسي ديني لم يعجب أبا سلمة الخلاّل، ممّا دعاه إلى الإنقلاب عليهم وإيجاد بديل علوي يخلف العباسيين في تنظيمهم ضدّ الأمويين، هذا أغلب الظنّ الذي نحتملهُ هنا في تحوّل الخلاّل من التنظيم العباسي إلى محاولة إقناع العلويين بتولّي زعامة المعارضة الأُموية.

إلاّ أنّ أبا سلمة الخلاّل أخطأ في حساباته، فقد ظنّ أنّ هناك ثلاثة بدائل، وسيتفق أحدها معهُ ويَقبَل بعرضه، وهم: الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وعبد الله بن الحسن المحض، وعمر الأشرف.

أمّا الإمام الصادق عليه السلام فقد رفض دعوة الخلاّل، وأحرق كتابه بالمصباح الذي كان أمامه، نافياً بذلك قبول أيِّ حركةٍ تنظيميةٍ بهذه الصيغ المنطلقة من نقاشات سياسية غير شرعية، ومصالح دنيوية شخصية، ولم يكن الخلاّل يمثّل تطلّعات الأئمّة

عليهم السلام في إقامـــة دولتهـــم، ولا طموحاتهم في الوصول إلى هدفهـــم وهو إقامة دولة الحقّ، ممّا دعا الخلاّل أن يَعرض الأمر على عبد الله بن الحسن المحض، الذي أخذ بوعود الخلاّل واغتراره بالاندفاع في صنع القيادة البديلة عن بني العباس، ويبدو أنّ العباســـيين كانوا قد وقفوا علىحركة الخلاّل وقبول عبد الله بن الحســـن، ممّا دعاهم إلى قتل الخلاّل، والتوجّس من عبد الله بن الحســـن، الذي آل أمرهُ بحبسه في عهد المنصور وقتـــل أبنائه بعد خروجهم على المنصور، ومواصلـــة العداء التقليدي بين العباســـيين وبين بني عبد الله الحسنيّين، بل قل بين العباسيين وآل عليٍّ عموماً؛ ممّا عرّضهم إلى التنكيل والتصفية والقتل على يد العباســـيين، الذين لا يزالون ينظرون إلى آل علـــيٍّ بأنّهـــم المنافســـون التقليديون الأقوى من بـــين كلّ فصائل المعارضة الأُخرى.

تأريخية التنافس بين العباسيين

هذه هي حيثيات التأسيس للمنظمة السرّية العباسية التي جاءت على أنقاض جهود التأسيس العلوي الذي بدأه أبو هاشم أول الأمر. من هنا نقرأ فلسفة التنافس الذي أحاط بتحركات العباسيين، وكيف أنّ هؤلاء الساسة المحترفين يمثّلون طموحات السياسي المحترف الذي من شأنه أن يسحق قيمَهُ ومبادئَه من أجل تحقيق الفوز السياسي الذي يؤهّله لتبوّء مناصب الدولة، متنكراً بذلك لجميع حلفائه، وإذا كان الأمر كذلك فلا نستبعد ممارسات العباسيين القمعية مع حلفائهم التقليديين ليحيلوهم إلى أعداء تقليديين، وبذلك كانت حركة الدعوة العباسية مزدوجة، وهو العمل على إسقاط الأُمويين كدولة قائمة، وكذلك إقصاء المعارضة العلوية المنافسة للعباسيين في طموحاتهم.

إذن لم يكن الصراع العباسي العلوي صراعاً طارئاً وليد أحداث ما بعد تأسيس الدولة، بل هو صراع أيديولوجي تنظيمي أطلق شرارتهُ العباسيون في بادئ الأمر، وأذكى روحه العباسيون أصحاب الدولة، متجاهلين بذلك دور آل عليٍّ في إسقاط أنظمة الحكم الأموي، وتنظير الحركة الثورية التي أطاحت بآلِ أبي سفيان، ومصادرة جهود العلويين وإحالتهم إلى أعداء ومعارضين مطارَدين يُنكّل بهم في كل موقعٍ من ساحات الصراع السياسي الاجتماعي والديني، وهو أهمها، بل أشدّها.

من هنا ستكون القراءة التأسيسية للدعوة العباسية ولدولتها تمهيداً لفهم مجريات الأحداث التي أحاطت بحياة الإمام الجواد عليه السلام، والذي عانى بشكل لا يمكن تصوّره من المنافسة العباسية التقليدية التي تسحق معها كلّ المبادئ والقيم، والتي من شأنها أن تتّخذ معاناة الإمام الجواد عليه السلام مع رجال الدولة العباسية، بل مع الآخرين من معارضيه الدينيين منحىً جديداً تُستحقّ معهُ الدراسة والتمعّن والتحقيق.

(والله ليجعلــنَّ الله مــنّي ما يثبت به الحق وأهلــه، ويمحق الباطل وأهله)[١].

هكذا كان علي بن موسى الرضا عليه السلام يقرأ غيب السماء في ولده القادم (محمد) إنّــه الوريث الوحيد لإمامةٍ حافلةٍ بالتحدّيات التي تحيــق بإمامة عليّ الرضا، وقد خرج توّاً من معترك الشــبهات التي أثارتها (الواقفــة) على إمامة أبيه، إنّهم كلابٌ (ممطورة)[٢] كما وصفهم الرضا من قبل؛ ليخرج من جولات تحدّياتهم منتصراً، مثبتاً لهم ولغيرهم إمامته الإلهية...

(١) الكافي، ٣٢١/١، ح٧ قطعة.

(٢) انظر هامش إكمال الدين، ص٩٣.

قراءة في الصراع العباسي–العباسي

كان الجوّ ملبّداً بتحدّيات السياسة، فالمأمون لم تَنتَهِ سباقات تنافساته مع أخيه الأمين بعد... والغلبة الآن للحكمة وللحصافة، فليس للأمين وهو بين عباسيّين حظوة الانتصار، فهو خائر أمام رغباته وأهوائه وليس لنفسه الانقياد، لا لأهوائه الجامحة التي فتكت به أخيراً وألقت برأسه يتدحرج تحت أقدام من أحسن اللعبة مع أخيه المأمون، إنّه الحسين بن طاهر، ذلك القائد الطموح الذي لم يمهل الأمين أن يتنازل عن كرسيه بعد مفاوضاته مع هرثمة بن أعين الذي أحب أن يصلح أمر الأمين ويبقى على حشاشة نفسه[1].

هكذا كانت أجواء السياسة العباسية... مراجل تغلي بالأحقاد والتنافس، ونفوس طامحة إلى الأثرة السياسية الجامحة..

ولم تكن السياسة قد ألقت ثقلها على جهة التحدّيات الأُسرية لبني العباس فحسب، بل كانت تبعات هذا الانفلات تشحن النفوس الموتورة أن تروِّض في حُمّى التشكيك بإمامة الرضا الذي لم يولد له ولدٌ بعد...، أي كان هذا التنافس الأُسري العباسي يلقي بظلاله على ساحة الأحداث..

وكانت الأحداث مأخوذة في حمى الصراع بين قوميتين، تُراهنان على هوى الأطراف في تقديم عنصر على عنصر، وقومية على أُخرى، وكان العرب يتوجّسون من تقدم الفرس لدى المأمون، وخشية بني العباس أن ينحاز الأمر للفرس بتولّي المأمون قيادة السلطة، وهاجس التنافس محموم في نفوس هؤلاء ومأخوذ بالجدّ في هِمَم أولئك.

وشأن القلّة من الغرباء أن يلتمسوا مواضع التقدم على حساب غيرهم، فأُثيرت هواجس العباسيين من أُولئك القادمين... ولا ننسى ما للفارق العقائدي من

(١) انظر الأخبار الطوال للدينوري: ٣٩٩.

عظيـــم خطر في إذكاء روح التنافس، فظنّ بنـــو العباس أنّ الفرس أنصار العلويين وسيستأثرون بالأمر؛ لِما للفرس من هوى التشيّع ومحبّة آل عليٍّ، وهي وراثة ورثوها يوم كان (الحمراء) بعض رعية الكوفيين في عهد علي عليه السلام الخليفة.. الإنســـان... القائــد... الأنموذج في كلّ تعاملاته مع رعيتــه، وكان له الأثر في رفع الحيف عن أُولئك المســتضعفين من حمراء فارس، حى أزال عنهم ما عانوه أيام الخليفة الثاني مـــن تحقيرهم والإزدراء بهم، فكان عاقبة أمره اغتياله على يد بعضهم ثأراً لحقوقهم المهدورة في عهده.

وكان فرق العهدين: أن انتصروا لعليّ الإمام وناصروه وأحبّوه وشـــايعوه، وأخفّوا بغضَهم للخليفة الثاني؛ لإســـرافه في الإمعان بعزلهم ونقص حظوظهم من العطاء، وحـــثّ أصحابه على إخراجهم من جزيرة العرب، كمـــا صرّح هو به في أُخريات حياته.

هـــذه دواعي حبّ الفـــرس لعليّ عليه السلام وهي الدواعي ذاتهـــا في محبة غير الفرس لعليّ عليه السلام، والإنسان رهين الإحســـان، فكان عليّ عليه السلام الإحسانَ في كلّ أموره، فلـــم يكن التشـــيّع لعليّ عليه السلام موقوفاً على الفرس وحدهـــم، ولم يكن حبّه مرهوناً لقومية دون أُخرى، فحبّ عليٍّ إنسانيّ يستعذبه كلّ إنسانٍ مولود على فطرة الخير والكمال.

❋ ❋ ❋

كان الفضل بـــن الربيع (عروبياً) على ما يبدو، يثأر لقوميته من أُولئك البرامكة (الغرباء) الذي قدموا من بلاد فارس، فظلّ الفضل على (عروبة) الخلافة العباسية، وكانت لهذه القومية آفة التطرّف في حسم الأحداث لصالحها، وهذا آفة كلّ قومية، فحرّض الأمينَ أن ينازع أخاه المأمون، وعاضده عليّ بن عيســـى بن ماهان الذي أنف تقدم العنصر الفارســـي بتقدم المأمـــون، فعمد على التنكيل بهؤلاء (الفرس)، الذين تظاهروا على عروبة هؤلاء، هكذا تخيّل علي بن عيســـى بن ماهان والفضل

بن الربيع ومن هم على شـاكلتهما في إحداث الشغب بين الأخوّين، فدفعا محمد الأمين على خلع أخيه المأمون ومبايعة ابنه بولاية العهد، وكان ذلك لثلاثٍ خلون من شـهر ربيع الآخر سنة (١٩٤هـ)، فقام إلى العهود التي كتبها الرشيد فحرقها، إمعاناً في نقضٍ العهد ومخالفة المواثيق... ولم يكن أهل خراسان قد خفّوا لهذه البيعة بنقض تلك العهود، وكأنّ الخراسـانيّين ثأروا لخؤلتهم في المأمون من أُمّه الفارسـية (مراجل) تلك الجارية السـوداء، قليلة الحظّ من بين جواري الرشـيد، والداخلة في خدمة سـيدة القصر العباسـي (زبيدة) والدة الأمين. وأنّى لبني العباس أن يُقنعوا أنفسـهم بطاعة المأمون فيتغلّب بذلك عنصر الفرس ولتكون لهم الحظوة والسطوة من خليفتهم القادم (المأمون ابن مراجل الفارسية).



هكذا كان الصراع بـين القوميّتين يؤججه أصحاب المصالح.. وتبعث فيه الحياة دواعي الأنفة والمكابرة بين الفريقين، فيأخذ هذا ما حظي به نسبه من التقدم في أمر الخلافة، ويستأثر الآخر ما ميّزته الفطنة في مستقبل الخلافة، فالأمين يفخر بحسبه العباسـي، والمأمـون يتفاضل بفطنته وذكائه.. ويتميّز الأمين باللهو والإسـراف، ويتفرّد المأمون بالجدّ والإسفاف، وبين اللهو والجدّ.. والإسراف والإسفاف.. هوة ساحقة من التقدم والجدّ والمثابرة... ومن هذه الهوّة يتترّس الجِدّ في جانبٍ، واللهو في آخر.. ومنهما تنشأ محاسـن الطرفين ومثالب الفريقين.. ومن سعيهما تتحقق آمال الأنصار وتكبر أحلام المؤيدين... وتأخذ حلوم ذوي الشـأنَ حظوظ الجِدة والأثـرة من الأنصار الأوفياء وجماهير المؤيدين.. وتتقاعس مصالح العامة، فلم يجد مـن يُديم النظر فيها ليكشـف عنهم عادية البلاء، ويُزيـل عنهم حيف اللأواء، ويجنِّبهم مواضع الشـرّ ووحشـة الفتن، ويمنعهم بوائق العدوان عند إثارة الشـغب ليأخذهم إلى حيث الأمن والإسـتقرار... ولم يجد فرقاء النزاع مندوحة التصبر عن طَيِّ صفحـة التنافس؛ حتى ألقوا الأُمور على كاهل الحسـد والأثرة، وأرخوا زمام

المصـــالح فأُلقي الجميع في حضيض نزاعٍ انتهى إلى قتل المأمون للأمين، وانحاز كلّ فريقٍ إلى حيث أهواؤه ومطامعه.



لم يسع المأمون إلاّ أن يعارض ما صدر من نزق الأمين ليواجهه بالحلم، وطيشه بالجدّ، ولهوه بالمثابرة، وبطشـــه بالعفو، وإساءته بالإحسان، وجهله بالحكمة، ولا نوعز هـــذا التباين في جِبِلّـــة المتناقضين إلى عفوية الحـــال، أو صدفة الأُمور، بل كان ذلـــك لرغبة المأمون أن يحتلّ مكانة الحرم في قلب الرشـــيد (الخليفة)، ورعاية الحشـــمة في نفوس بني العباس (الحاشـــية)، وسمعة الورع في أذهان العامة (الرعية)، وهذه -لعمري- مقوّمات الســـلطان، ودواعي ولاية العهد فيما إذا رغب الرشـــيد إناطة الأمر إلى أحدهما يوم ترجح الكفاءة على رغبات العاطفة، وتلتمس مقاييس الأهلية حين تحكم في الإختيار...

ولعلّ للنســـب والحسب شأن في تقرير مصير ما آل الأمر إليه من اختيار الأمين ولياً لعهد الرشيد، وكان للمأمون حظّ الإمرة والولاية تبعاً إلى أخيه الأمين... وكان الرشيد يعلم فوارق النقيضين فيسجّل شهادته لولديه بقوله:

> ... وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأثق بحسن سياســـته، وآمن ضعفه ووهنه، وهو عبد الله، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشـــاركة النساء والإماء في رأيه، وعبد الله المرضيّ الطريقة، الأصيل الرأي، الموثوق به في الأمر العظيم، فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم[1]، وإن

(١) يعني بذلك: بني العباس دون آل عليّ، فإنّ العلويين ليس لهم شأن في الرغبة عن هذا وتقديم ذاك فيما يخصّ خلفاء بني العباس، الذي لم يشاركوهم في الأمر، ولم يقرّوا لهم بشيء.

أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية..[١].

ولا نرجّح ما رجّحه الرشيد في أمر التفاضل على واقعه، بقدر ما ننقل صورة المأمون التي حاول أن يحسنها للعامة تهالكاً على السلطة، وطمعاً في الإمرة، وليس دخيلة المأمون أطهر من سيرة الأمين، ولا سريرته بأنقى من طيش أخيه، إلاّ فيما يسبقه بحسن التدبير، والاحتيال بحظوة الترشيح، والتنافس على استئثار أحدهما على الآخر حسداً وطمعاً..

❁ ❁ ❁

ولعلّ للمأمون دواعيه في انبثاق ذلك السلوك الذي ميّزه عن أخيه، فشعوره بالعزلة من قبل بن أبيه ونظرتهم الدونية له دعته إلى تأسيس سلوك آخر في التعامل والرغبة في لفت الأنظار إليه...، فالعباسيون لم يقتنعوا بانحدار المأمون من خُؤولته الفارسية بسبب أُمّه مراجل، الأمَة المعروفة بعدم حظوتها بين نساء القصر، فهو في العرف العباسي ابن أمة، غير جدير لتقلّد أية مسؤولية ترفع من مَحْتِده[٢] الحقير.. ولا بدّ للمأمون أن يسلك سلوكاً يرتفع على هذه النظرة الخسيسة التي قلّدها إليه العباسيون، فإذا تمرّد على تقاليد حياة البلاط وتقاليد الإمارة من اللهو والمجون والعبث فإنّه يتمرّد الآن على تقاليد بني أبيه العقائدية، التي ما برحت تُقدِّم أبا بكر وعمر على عليّ عليه السلام، وتحاول عبثاً أن تنيط الحق إلى غير علي عليه السلام، غير آبهة بمسلّمات أحقية الخلافة ووصاية الرسول صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام، وقد رواها العباسيون يوم كانوا يستجدون استعطاف الناس لهم، وميل القلوب إليهم، كما استجدّوا بهذه الفضائل لقمة العيش، ومحاباة الناس، واستعطاف قلوبهم، وقد فعل ذلك أبو جعفر المنصور قبل تسلّمه الحكم، وقد كان صُعلوكاً يجوب مواطن الاسترزاق ومظانّ التقمّم...

---

(١) مروج الذهب: ٣/٣٨٦.

(٢) المَحْتِد: الأصل والطبع والمقام والمنزلة والخالص من كلّ شيء، لسان العرب: ٣/٤٠ (مادة حتد).

وإذا خالف المأمون بني أبيه في عقيدته فإنّه مدفوع بالانتقام من تقليدية هؤلاء ليصبح مثار الانتباه ومآل أهله وذويه،وليتحدّثوا به بعد أن كان مغموراً في خسّة النسب، ومهملاً في بُعد شُقّة الخُؤولة الفارسية، وليحذر منه بنو العباس فيحسبوا فيه حسابهم، ويأخذوا منه حذرهم، ويحتشموه موثوقاً بعقيدة العلوية الزاحفة إليهم خلف الأسوار العباسية الموصدة، فضلاً عمّا سيملكه من رصيد قوة الفرس الذين دخلوا البلاط منافسين للترك، ومبارزين للروم في حصولهم على حظوة القرب في البلاط العربي بما كان هؤلاء الفرس ينحازون في هواهم لعلي وآل علي عليهم السلام؛ مكافأةً منهم على رفع الحيف منهم يوم كان عليٌّ حاكمَ الكوفة وخليفتها، فقد نظر إليهم؛ ضحيّة العصبية القبلية حين كانت الكوفة تفاخر بقبائليتها وتفخر على كل عنصر من غير العرب، تمسّكاً منهم بما جعله الخليفة عمر تقدماً لهم علىغيرهم، وشدّد على الفرس بأن يخرجوهم من جزيرة العرب إلى حيث لا يراهم هو وقبيله ممّن هم على سنّته وهواه في قوميتهم العروبية، حتّى أنّه أنقص حظوظ الفرس من العطاء، وزاد للعرب في أُعطياتهم دون مراعاة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

هكذا نشأت دوافع الفرس في حبّها لعلي ولآل علي عليهم السلام، لا لصدفة الإتفاق، أو وثبة النزق، أو طيش التعنّت، أو هوى العصبية، بل لداعي الفطرة، وانبعاث الوفاء في النفس الإنسانية بميلها إلى مَن أحسن إليها، فإنّ الإنسان مجبول على حبّ الإحسان، وإذا كان الفرس توّاقين لآل علي عليه السلام في هواهم، فما الذي يمنع المأمون أن يَدين بدينهم إنسانٌ يأخذه حبّ علي، ويملك فيه عافية التطلّع إلى حياة علي عليه السلام؟ ذلك الإنسان الذي يملك من مواصفات الخلافة الإلهية ما لا يملك غيره، ويقرأ المأمون في عليٍّ عليه السلام سيرة المجاهد كما يقرأ فيه سيرة الزاهد، ويتطلّع إليه عالماً كما يسبره حكيماً، ويبكيه مظلوماً كما يعرفه جادّاً في انتزاع حقّه لو لا حرصه على سلامة الإسلام، وبقاء الدين، ووحدة الأُمّة من الضياع...

فإذن (علي عليه السلام) ملحمة الإنسان المجهول الذي حاول بنو العباس أن يُزوُوه عن

(١) الحجرات: ١٣.

مخيّلة الباحث عن الحقيقة، ويتجاهلوه حرصاً منهم على أن لا تقوم لبنيه قائمة، ويهملوا ذكره سعياً وراء إخفاء ما يملكه بنوه من رصيد المحبّة في قلوب الناس، وهم المعارضة الخفيّة لسلطان العباسيين، وكل هذا لا يُثني عزيمة الباحث عن الحقيقة في علي وآل علي عليهم السلام، والمأمون باحثٌ من الباحثين، ومقتفٍ لآثار الأوّلين، وفرق بين الباحث عن الحقيقة وبين المعتقد بها، فلربّ من يقف على الحقيقة كمطّلع، وربّ من يتابعها كمعتقد، وربّ من تدعوه دواع الرغبة في معرفة ما تخفيه دواعي الحسد، ودوافع الإنتقام، وكأنّ المأمون ثالث ثلاثة في اقتفاء الأثر، ومعرفة الجدّ في رغبة بني أبيه بإخفاء معالم علي عليه السلام،فجدَّ منهمكاً في متابعة الحقيقة دون اتّباع الحق، وكان حريصاً كلّ الحرص على إبراز ما أخفاه المنافسون له من بني أبيه تنكيلاً منه بهم، وتحقيراً لدعواهم في أحقّيتهم للخلافة دون طائل، وإمعاناً منه في إطفاء سَورة المكابرة وقد أشعرتهم بأنّهم ظِلَ الله في أرضه، وهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله مناجزة لأهل بيت النبي، علي عليه السلام وبنيه...

إذن لم يكن المأمون متشيّعاً لعليّ عليه السلام بقدر ما عني في معارضة بني أبيه، تمرّداً منه عليهم، وبحثاً عن الحقيقة دون الإعتقاد بها، وتثبيتاً للحقّ من غير اعتراف به، وطلباً للواقع خلافاً لما أظهره مع آل علي كما سيأتي... فضلاً عن إحراز رضا الفرس في دعواه التشيّع لعلي؛ ليضمن بذلك مناصرتهم في دفع المعارضين له من بني العباس، وحرصاً منه على كسب ودِّ العلويين الثائرين، وسنجد أنّ عصر المأمون حفل بثورات المعارضة العلوية، كخروج أبي السرايا، السري بن منصور أحد بني ربيعة بن ذهل بن شيبان، ومناصرة بعض العلويين له، كالحسن بن الحسين بن زيد، ومحمد بن محمد بن زيد، والحسن بن إسحاق بن علي بن الحسين، ومحمد بن الحسين بن الحسن، وعلي بن عبد الله بن محمد، وكمبايعة أهل المدينة لمحمد بن جعفر بن محمد عند خروجه على المأمون وخلع نفسه عن البيعة بعد معارك يطول ذكرها، إلى غير ذلك من خروج العلويين عليه، وخطورة ذلك تكمن في كون المأمون خرج توّاً من أخطر معاركه منتصراً على أخيه الأمين، تاركاً في قلوب بني أبيه شعور الخيبة في

انشقاق عصبة الخلافة العباسية، وانخرام عصمة الرحم بين وريثَي البيت العباسي في الخلافة، وهي أول حالةٍ تقصم فيها عرى الإخوة بين متنافسَين ينتهي أمرهما بأن يُطوّف برأس أحدهما في آفاق البلدان، وهو أمر لا يرتضيه العباسيون، حتى يعلنوا تذمّرهم على المأمون ببيعتهم لعمّه إبراهيم بن المهدي المغنيّ المعروف، رافضين بذلك المأمون، محتملين ما يصيبهم من عنت الطعن واللوم على سوء الاختيار لهذا المغنّي الماجن، وهو أمر يكشف عن مدى لجاجة الأحداث في أن تصل إلى هذا الأمر... ومن هذا فعلى المأمون أن يأخذ حذره من تمرّدٍ محسوبٍ يؤدي به وبملكه، فما السبيل إلى ذلك؟

❁ ❁ ❁

ولعلّ بعضهم يذهب إلى غير ذلك، فهو يرى أنّ طبع المأمون كان مجبولاً على حبّ آل علي عليه السلام دون تكلّف المجاملة، أو التربّص في إرضاء الخصوم العلويين الذين باتوا يرون ملاحاة العباسيين لهم في العداء أمراً تقتضيه جبلّة التنافس، وطبيعة الحريص على اقتناص فرص الغلبة في بسط هيمنة السطوة على غيرهم من منافسيهم، ونقرأ فيما أرّخه ابن الأثير في كامله أنّ المأمون لم يتصنّع العطف أو يتكلّف الحب، أو يستأثر الشفقة على العلويين درءاً لخطر التهالك في الحصول على حطام الملك، أو دفعاً لاحتمال الأسوأ في اتخاذ بعض ما يلومه عليه بنو أبيه من تقديم آل علي في حظوة التكريم وبسط أسباب التبجيل، أو كلّ ما من شأنه أن يرفع من مقامات آل علي عليهم السلام؛ محتملاً لوم اللائمين وتعنيف العاذلين من بني أبيه.

قال ابن الأثير في كامله: قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار: كان المأمون شديد الميل إلى العلويين، والإحسان إليهم، وخبره مشهور معهم، وكان يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً، فمن ذلك أنّه توفي في أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي، فحضر الصلاة عليه بنفسه، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجّبوا منه، ثم إنّ ولداً لزينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس -وهي

ابنة عم المنصور– توفّي بعده، فأرسل له المأمون كفناً، وسيّر أخاه صالحاً ليصلّي عليه، ويعزي أمّه؛ فإنّها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة، فأتى إليها وعزّاها عنه، واعتذر عن تخلّفه عن الصلاة عليه، فظهر غضبها وقالت لابن ابنها: تقدم فصلِّ على أبيك وتمثلت:

سَبَكْنَاهُ ونَحسِبُه لُجَيناً فأبدى الكِير عن خُبث الحديدِ

ثم قالت لصالح: قل له: يا بن مراجل، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعت ذيلك علىفيك وعدوت خلف جنازته[1].

ولم تجد ما يعزِّز نظرة أولئك الذين مالوا إلى تشيّع المأمون أو أفرطوا فيه بوصفهم أنّ المأمون قد غالى في تشيّعه، كما عن الذهبي في تاريخ الإسلام سنة (٢٠٠– ٢٠١) ما يضمن لنا قوة الحجّة في هذه المقطوعة التاريخية، فلربّما كان يدفعه موقف من مواقف الخطر السياسي الذي أحدق بالمأمون وشيعة عليٍّ يتربصون به، فأراد دفع غائلة الثورة والتمرّد، أو ربّما كانت شبهة اغتيال المأمون للإمام الرضا عليه السلام تحيق بالمأمون فيتوجّس من خلالها الغوائل، ويدرأ في ذلك عادية الثورات العلوية، أو –لنحسن الظن في هذه الواقعة أن نقول وعلى أحسن تقدير:– إنّ المأمون كان يعجبه آل أبي طالب، فكان توّاقاً في مواصلتهم والحرص على برهم، لا لعقيدة الإيمان فيه، بل لجبلّة الفتوة التي فُطر عليها المأمون، فأحب فتوة الطالبيين الموروثة من فتوة علي وآله الطيبين، وإلاّ فليس ذلك ما يبرر تشيّع المأمون وانكفاءه على عقيدةٍ يعلم فيها نهاية ملكه وحتمية مآله.

ولعلّ ما يدور في خلد العباسيين، وما يجري في أروقة القصر من التهامس بين الساسة وأنصار العباسيين وقادة الأحداث وأُولي الأمر، وما يدبّ بين العامة فيما تلقيه الخاصّة من كون المأمون قد مال في هواه لآل علي، وغلب عليه نصرتهم،

(١) الكامل في التاريخ، ٤٣٨/٦، عصر المأمون لأحمد فريد رفاعي: ٣٦٨.

وأخــذ بحبهم دفع بالمأمون أن يعتذر لقاضيه يحــيى بن أكثم مقرّر عقيدة القصر، والسائس لتوجّهات البلاط العباسي، والمعروف بعدائه لآل علي وأنصارهم من أنّه مأخــوذ بتهمة العداء للصحابة، وقد خرج توّاً مــن مناظراته في الدفاع عن أحقّية علي عليه السلام في الخلافة وتقديمه على بقية الصحابة، وهو أمرٌ يســتحق عليه صاحبه في نظــر (الآخــر) أن يوصم بتهمة العداء لصحابة النبي صلى الله عليه وآله، وهو ســلاح طالما يستخدمه أولئك المقلِّدة من أجل إفشال أي مشروع إصلاحيٍّ لبيان حقائق تأريخ الأُمة، وتهمة العداء للصحابة بضاعة جاهزة بخســة الأثمان يسوقها تجّار السياسة وقادة الفتن وأصحاب الأهواء المتناحرة، وكأنّ المأمون قد توجّس من نتائج مناظرةٍ عقدها مع فقهاء بغداد وأهل العلم منهم في أمر الخلافة، فأراد أن يبعث برســالة طمأنة إلى الخاصة من المقلِّدة وعامّتهم، وهاجس الإصلاح وتوجّسات التغيير تدور في أذهان أهل الحلّ والعقد، من ساسة العقائد الحاكمة والأهواء السائدة يومذاك. فقال المأمون لابن أكثم: يا أبا محمد، كَرِه هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف مــن الناس، بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم، فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علــي بن أبي طالب عليه السلام، وظنّــوا أنّه لا يجوز تفضيل عليٍّ عليه السلام إلاّ بانتقاص غيره من الســلف! والله ما أســتجيز أن أنتقص الحجّاج فكيف السلف الطيب؟! وإنّ الرجل ليأتيني بالقطيعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعلّ قيمته لا تكون إلاّ درهمــاً أو نحوه، فيقول: إنّ هذا كان للنبي صلى الله عليه وآله، قد وضع يده عليه أو شــرب فيه أو مسّه، وما هو عندي بثقة، ولا دليل على صدق الرجل، إلاّ أنّي بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار، أو أقل أو أكثر، ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرّك بالنظر إليه وبمسّــه، فأستشــفي به عند المرض يصيبني، أو يصيب من أهتمّ به فأصونه كصيانتي لنفســي، وإنّما هو عود لم يفعل شيئاً، ولا فضيلة له يستوجب المحبّة إلاّ ما ذكر من مسِّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه، وبذل ماله ودمه دونه، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة، وعادى العشــائر والعمائر والأقارب وفارق الأهل والأولاد، واغترب عن داره ليعزّ الله دينه ويظهر دعوته؟!

يا سبحان الله! والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً لكان في الأخلاق جميلاً! وإنّ من المشركين لَمَن يرعى في دينه من الحرمة ما هو أقلّ من هذا. معاذ الله ممّا نطق به الجاهلون...(١) . إلى آخر ما يعتذر به إلى يحيى بن أكثم، وما يسوّغه من دفاعه عن عليٍّ عليه السلام في حقّه وعن مذهبه في تقديمه على غيره، وهو بعد لم تثبت لنا صحة اعتقاده الشيعي أو إيمانه الراسخ، ففي مناورات السياسة ما تخفي الأحداث وراءها مقاصد التناحر ودواعي التنافس، ومقتضيات التصفيات السياسية، وقتل الخصوم، وكان علي بن موسى الرضا عليه السلام بعض من نالته كؤوس حتوف الإحتراب السياسي والتنافس المحموم بحمى تداعيات الأثرة والتهالك على حطام السلطان.

لم يسع المأمون إلاّ أن يأخذ حذره كما قلنا، فما الذي يفعله غير أن ينقلب على تقليدية آبائه في عداءهم لآل علي، حتى يعمل على تقريب الإمام علي بن موسى الرضا ويتشفّع عند العلويين بتوليته ولاية العهد، فضلاً عمّا سيحدثه المأمون من التلويح لبني أبيه بإخراج الأمر منهم إلى معارضيهم من آل علي، إن لم يحسنوا مع المأمون التصرف ويعملوا معه على إدارة الأمر، والقضاء على تمرّدات العلويين وثوراتهم، أي سيجعل ولاية العهد قوةً ضاغطةً على الوجود العباسي، مهدِّداً إيّاهم على مصادرة مجدهم وهيبتهم، وكسر شوكتهم، أي كانت ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام من قبل المأمون رسالة مفتوحةً قرأ فيها العباسيون حاضرهم واستشرفوا فيها مستقبلهم، ممّا دعاهم إلى التخلّي عن عزمهم في الإبقاء على إبراهيم بن المهدي بديلاً عن المأمون، ومقابل هذا أن يقصي المأمون الإمام الرضا عن ولاية العهد بتصفيته سمّاً واغتياله، وإرضاءً للنزعة العباسية، وتمّت الصفقة الخسيسة بين الطرفين، فشُلَّت يد البائع، وتبّت يمين المشتري,



(١) عصر المأمون: ٣٦٩ لأحمد فريد رفاعي عن تاريخ بغداد.

حـــاول المأمـــون دون جدوى أن يضع الأمر في عنق الإمـــام، مختبياً خلفَ نوايا عدة، والإمام كان رافضاً له أشدّ الرفض، محبطاً بذلك مشاريع المأمون، وساعياً إلى تحويـــل ما عزم عليه المأمون مـــن فتح إلى هزيمة، ومن نصر إلى خذلان، ومن نجاح إلى إحباط، فالمأمون أراد أن يدخل اللعبة منتصراً بما يحســـنه من تدبير السياســـة، والإمـــام عاجله في إفشـــال اللعبة بما يملكه من حنكـــة التبصّر في عواقب الأمور، والمأمـــون أضعف من أن يجعلِ الإمام ســـبباً في تنفيذ مآربـــه، أو قنطرةً تُوصِلهُ إلى تحقيـــق مصالحه، والإمام أجلُّ مـــن أن يُصغي للمأمون أو يركن إلى زبرجة وعوده، فالإمام لا يرفعه ما يمنحهُ المأمون من خلافة مزعومة، وسلبيته حيال عرض المأمون كشـــف عن تداعيات خلافة بني العباس غير المشروعة، والإمام لا يحول عنه أحد دون الخلافة الشرعية، فهو لم يكن في يوم ما محتاجاً إلى عرض المأمون، أو مخذولاً من إزواء الرشيد، فخلافتهم ملك دنيويٌ، وخلافته نصّ إلهي.

وهـــذا أمر جديـــر بالتأمّل والتبصّر بما آلت إليه الأُمـــور... فعرض الخلافة كان مدفوعـــاً من قبل الإمـــام، محتجّاً على المأمون بأنّ الأمـــر ليس بيدك، فإن كانت الخلافـــة لك فـــلا معنى لمنحها غيرك، وإن كانت لغيرك فـــلا يجوز أن تجعل لي ما ليس لك، وكان ذلك جديرٌ بإدانة المأمون وأســـلافه في عدم مشروعية خلافتهم، ولنســـتمع إلى ما دار بين الإمام الرضا وبين المأمون في شـــأن الخلافة؛ لينبلج الحق لذي عينين...

روى الصدوق بسنده، عن علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن أبي الصلت الهـــروي قال: إنّ المأمون قـــال للرضا عليه السلام: يا بن رســـول الله، قد عرفت علمك وفضلك وزهدك وورعك وعبادتك، وأراك أحقّ بالخلافة منّي.

فقال الرضا عليه السلام: (بالعبودية لله عزّ وجلّ أفتخر، وبالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شـــرّ الدنيا، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم، وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله عزّ وجلّ).

فقال له المأمون: فإنّي قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأُبايعك.

فقال له الرضا عليه السلام: (إن كانت هذه الخلافة لك والله جعلها لك فلا يجوز لك أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك).

فقال له المأمون: يا بن رسول الله، فلا بدّ لك من قبول هذا الأمر.

فقال عليه السلام: (لست أفعل ذلك طائعاً أبداً).

فما زال يجدّ به أياماً حتى يئس من قبوله.

فقال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحب مبايعتي لك فكن وليّ عهدي، تكن لك الخلافة بعدي.

فقال الرضا عليه السلام: (والله لقد حدثني أبي، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي أخرج من الدنيا قبلك مسموماً مقتولاً بالسُمّ مظلوماً تبكي عليَّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأُدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد، فبكى المأمون!

ثم قال له: يا بن رسول الله، ومن الذي يقتلك أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حيّ؟!

فقال الرضا عليه السلام: (أما إنّي لو أشاء أن أقول لقلت من الذي يقتلني).

فقال المأمون: يا بن رسول الله، إنّما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس: إنّك زاهد في الدنيا.

فقال الرضا عليه السلام: (والله ما كذبت منذ خلقني ربّي عزّ وجلّ، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإنّي لأعلم ما تريد).

فقال المأمون: وما أُريد؟

قال عليه السلام: (الأمان على الصدق).

قال: لك الأمان.

قال عليه السلام: (تريد بذلك أن يقول الناس: إنّ علي بن موسى الرضا لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قَبِلَ ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟

فغضب المأمون ثم قال: إنّك تتلقاني أبداً بما أكرهه وقد أمنت سطوتي، فبالله أُقسم لئن قبلت ولاية العهد، وإلاّ أجبرتك على ذلك، فإن فعلتَ، وإلاّ ضربتُ عنقّك.

فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني الله أن أُلقي بيدي في التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أنّي لا أُولِّي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنّةً، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً.

فرضي بذلك، وجعله ولي عهده على كراهة منه عليه السلام بذلك[1].



لم يثبت النصّ مفخرةً للمأمون، ولم يجعل له مكرمة التنازل عن الخلافة إلى الإمام إلاّ لعبةً ماكرةً مكشوفة الأوراق، جليّة الغايات، ولم يستطع أولئك الذين يذهبون إلى تشيّع المأمون أن يثبتوه وبين أيديهم نصّ الإدانة لتصرف المأمون فيما عزم عليه من قتل الرضا إن هو يرفض فكرة تحويل الخلافة، أو مسألة قبول ولاية العهد، وأي ولاءٍ هذا والمأمون ليس له خيار إلاّ خيار القتل فيما إذا تسبّب الإمام الرضا في إحباط مشروع المأمون؟! وأيّ تشيّع هذا والإمام يتعرّض لكراهية القبول في أمر لم يكن هو راضيه، فصار المأموم متبوعاً، وغدا الإمام تابعاً؟! فأيّ تشيّع بعد هذا يبقى للمأمون؟!

نعم، كان المأمون قد استهواه التشيّع كإنسان تحكّمت فيه رغبة الحق كمعرفة

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق: ٢/١٥١.

مجردة عن كلّ دواعي السـلطان، وهواية البحث تأخذ الإنسان إلى مديات الرغبة الصادقة حينما يتخلّى عن نوازع السـطوة، بـل قد يتأصّل الخير في كوامن الفطرة ليدفع الإنسان لأن يعود إلى إنسانيته كإنسانٍ مجرّدٍ عن كلّ النقائص العارضة على توجّهات الخير، المسـتوحاة من سلامة الفطرة إذا ما هي نجت من معائب النفس الهابطة إلى حضيض الأشياء.

كان المأمـون -كما أشـرنا- يعاني من عقدة النقص الـتي تُلقي بظلالها على شـخصيته المنعزلة والطموحة كذلك، فالنقص أشعر المأمون بِدُونية الإنتساب لأُمّه الفارسـية، وكانت مراجل عنواناً كبيراً لمعاناة المأمون التي خلقتها نظرة العباسـيين إليه.

والذي نريد قوله: أنّ المأمون شـذّ في (عباسـيته) الخاصة به، فهو لم يحمل معه (عباسـية) الرشيد ولم يتخلَّ منها كما في (عباسـية) الناصر... ولم يختر الوسطية في عباسـيته بعد ذلك، فعباسـيته لغز محيّر خاض فيه الكثير، فمنهم من أقصاه عن عباسـيته وأحاله شيعياً خالصاً، ومنهم من ذهبت به المذاهب دون أن ينتهي بنتيجة معينة، وهكذا تضاربت آراء المحقّقين، وتعارضت رُؤى الباحثين، فلم يحطّوا رحالهم إلى ما تطمئنّ له نفوسـهم، أو يتّفقون على رأي يقطعون به شأفة العصبية في الاستنتاج التأريخي، وأي استنتاج لأية قضية تأريخية لايمكن الوقوف منها موقف المتحيز ما لم يتجرد المؤرخ عن نزعاته العصبية، أو نظرته القبلية، ليلقي عنان الحقيقة إلى حيث تسـلكه من وهاد التحقيق إلى مكامن قضايا أخفتها نزعات الرغبة في إثبات ما يستسيغه هو وما تهواه نفسه.

❁ ❁ ❁

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ تهمة تصفية الإمام الرضا لن تتخطّى المأمون، او تتعدّاه إلى ابنَي الفضل، او تتجاوزه بتآمر الحاشـية على قتله، فإنّ سنّة تصفية الخصوم قد عرفت منذ زمان، وسـعد بن عبادة أول من ذاق كأس حتوف المعارضة السياسية،

وأوعزوا تصفيته إلى الجنّ فقالوا: (قتلت الجنّ سـعداً)، ولم نسمع قبل وبعد مصرع سعد أن تدخّلت الجنّ في تصفية الخصوم، فإنّ جنّ السياسة أفتك وأشد بطشاً.. ولم يُخفِ التاريخ ما ابتكره ابن أبي سـفيان في دسّ السمّ بالعسل، فأودى بخصومه إلى حيث شاءت لهم (جنود الله من العسل)، وهو ما استساغه ابن أبي سفيان أن يطلق على مكائده فيوعزها إلى (جنود الله)...

وفي معرض تحليله لشخصية المأمون السياسية ذكر يوسف العشر في تأريخ عصر الخلافة العباسية ما نصّه: (... وكان إذا فاجأته حادثة أخّر حلّها حتى يستقيم له الرأي فيها. وهو على كلّ حالٍ يحلّ المسائل هادئاً دون أن يكون في الأمر إثارة أو استثارة، ليس فيه عنف ولا قسوة، يرغب في أن يكون حلاًّ هادئاً ناعماً لطيفاً[1]، لعلّ الناس في عصره ما كانوا يشعرون بأهميّة الحلّ، ولا يقدّرون قيمته، قد يلجأ في هذا الحلّ إلى السمّ أو إلى قتل الناس، ولعلّه كان يفعل ذلك لصالح الدولة[2]. ولعلّه كان يفضّـل الحلول الهادئة هذه على إرسـال الجيوش وقتال الناس، وكان بعد أن يوعز بالسمّ ويقتل من يقتل يتبرأّ من هذا الفعل، ويعلن سخطه عليه، بل يحاول أن يخفي تدبيره وراء ترتيب جديد: يُنعم على أهل الشـخص المقتول، ويُضفي عطفه على اسم المسموم واسم ذويه...

ولعلّه كان من خطّته أيضاً أن يفتدي نفسه بعليّ الرضا بن موسى، فإنّه ما مضى على وفاة الفضل بن سهل عدد من الأشهر حتى تناول علي الرضا بن موسى كمية كبـيرة من العنب وكان يحبّه فمات[3]. لعلّنا لا نصدّق أنّ إنسـاناً يموت من أكل

(١) من العجيب أن يصف الكاتب حلول الاغتيال بأنّها حلول ناعمة لطيفة، وإلاّ فمن القبيح أن تكون المعارضة أو الإختلاف في الرُّؤى سبباً للتصفيات الجسدية، بل وحتى الفكرية كذلك.

(٢) وهذا تعليل أعجب، إذ يستحسـن الكاتب مثل هذه الحلول اللاأخلاقية ويسـوّغها بأنّها لمصلحة الدولة، فأيّ دولةٍ هذه تقوم على تصفيات الخصوم وصراع الإرادات، ثم هي بعد ذلك تسوّقها بأنّها لمصلحة عقلائية؟!

(٣) هذا ما حاوله بعضهم أن يشـوّهوا الحقائق ويدّعوا أنّ الإمام الرضا عليه السلام قد مات من تناول كمية كبيرة من العنب؛ ليحاولوا أن يبعدوا شـبهة قتل المأمون له، ولم نعهد من قبل أنّ أحداً مات من كثرة أكل العنب، بل ثبت علمياً بأنّ العنب من المواد التي يتقبّلها الجسـم دون أية مضاعفات صحية، كثر ذلك أو قل، إلاّ أنّ المؤرّخين يشـاركون الحاكم في جريمة قتل الخصوم بتبريرات يفتعلونها لا تطرأ على بال حتى

العنب إذا لم يكن في العنب ما يؤثر في الحياة كالسمّ مثلاً، أعلن المأمون حزنه على وفاة الرضا، ولم يغيِّر سياسته في الأمر، بل استمرّ على لبس الخضرة[١]...

وهكذا هي سيرة المأمون، فإنّه ليس بِدعاً من ذوي السياسة وأهل الرئاسة حيث يختمون تحالفاتهم بالاغتيال لمنافسيهم الأقوياء... فالمأمون فكّر في بيعته علي الرضا، فأعظم أن يرجع عنها، وخاف إذا رجع ان يثور عليه أهل خراسان فيقتلوه، فعمد إلى سياسة الفتك، فدسّ إليه من أطعمه عنباً مسموماً فمات[٢].

ولم يكن هذا الرأي قد اختصّ به جرجي زيدان حتى وافقه أحمد شلبي بقوله: إن ثورة بغداد قد أرغمت المأمون على التخلّص من الرضا...[٣].

وليس المحدّثون قد انفردوا في هذا الرأي، فإنّ أبي الفرج الإصفهاني ذكر في مقاتل الطالبيين ما يؤكّد ذلك، فقال: (وكان المأمون عقد له على العهد من بعده -أي الرضا- ثم دسّ إليه بعد ذلك سمّاً فمات)[٤].

ولم ينكر ابن الطقطقي في آدابه السلطانية ما ارتكبه المأمون من قتل الإمام الرضا عليه السلام، وألمح إلى أنّه كان في قتله للرضا استرضاء لبني العباس، وأنّ في موته ذهاباً لخوفهم وتوجّسهم ممّا ستؤول إليه ولاية عهد الرضا بزعمهم، فقال في معرض تأريخه للمأمون: (ثم دسّ إلى علي بن موسى الرضا رضي الله عنه سمّاً في عنب فمات من ساعته، ثم كتب إلى بني العباس ببغداد يقول لهم: إنّ الذي أنكرتموه من أمر علي بن موسى قد زال، وإن الرجل مات، فأجابوه أغلظ جواب)[٥].

وحسبنا جواب عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن عليّ على رسالة بعث بها المأمون إليه، حيث توارى عنه، فأرسل إليه أماناً وأوعده بولاية العهد،

منفِّذ الجريمة نفسه.

(١) تاريخ عصر الخلافة العباسية، ليوسف العشر: ٩٠ وما بعدها.

(٢) تاريخ التمدّن الإسلامي: ٤/٤٤.

(٣) التأريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ٣/١٠٧.

(٤) مقاتل الطالبيّين: ٤٥٤.

(٥) الآداب السلطانية.

فقال عبد الله في معرض جوابه إليه:

وصـل كتابك وفهمته، تختلني فيه عن نفسي ختل القانص، وتحتال علـيَّ حيلة المغتال القاصد لسفك دمي، وعجبت مـن ذلك العهد وولايته لي بعدك، كأنّك تظنّ أنّه لم يبلغني ما فعلته بالرضا، ففي أيّ شيء ظننت أنّي أرغب من ذلك؟! أفي الملك الذي قد غرّتك نضرته وحلاوته، فو الله لئن أُقذف -وأنا حيٌّ- في نارٍ تتأجَّج أحبّ إليّ من أن ألي أمراً بين المسلمين، أو أشرب شربةً من غيرِ حِلّها مع عطش شديد قاتل.. أم في العنب المسموم الذي قتلت به الرضا؟![(١)].

وفي خبرٍ آخر:

فبأيِّ شيءٍ تغرّني؟ ما فعلته بأبي الحسن -صلوات الله عليه- بالعنب الذي أطعمته إيّاه فقتلته[(٢)].

وأحسب أن هذه الرسالة من شأنها قطع عادية اللجاج في أمر شهادة الرضا على يد المأمون. فعبد الله بن موسى هذا قريب عهدٍ على حادث الاغتيال، وهو مترصِّد لسلوك المأمون ومذهبه في تصفية الخصوم، ودم الرضا من ذحول الهاشميين المعارضين لسياسة العباسيين، الذين ما فتأوا يتخلّصون من آل عليٍّ بمثل هذه الغِيَل وتلك الدسائس سبب في غَلَيان الهاشميين بالثورة، إنتقاماً ممّا أقدم عليه المأمون في التمادي بقتل الإمام...

ولأبي فراس الحمدانيّ موقف من العباسيين يحاججهم بسوءاتهم، وأشهرها اغتيال الرضا وتصفيته بسم المأمون، ففي رائعته الميمية يذكر بها أمر الاغتيال بقوله:

ليس الرشيدُ كموسى في القياس ولا   مأمونُكم كالرضا إن أنصفَ الحكمُ

(١) مقاتل الطالبيّين: ٥٠٠.

(٢) المصدر السابق: ٤٩٩.

باؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته وأبصروا بعض يومٍ رُشدهم وعُمُوا

ولم تقف التهمة في حدود الاغتيال المروِّع، بل عمد المأمون أن ينفي تهمة كهذه عن نفسه، فأرسل إلى ابن الرضا وخليفته (محمد عليه السلام)، فكان من أمره ما يتكفّله بحثنا هذا..

الوليد المبارك

كانت تلك الليلة مليئةً بالمفاجئات للسيّدة حكيمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، حين أبلغها الرضا بأنّ الخيزران أصابها الطلق، وعليها أن تحضرها لتليها أمرها... كانت حكيمة وجلةً من تلك الليلة، فهي تستشعر خوفاً مصحوباً بأمل الحدث الجديد، وتتوجّس ممّا تخفيه هذه الليلة من تلك المفاجئات.. فحكيمة قلقة الآن ممّا ستتلقاه من بشارة المولود الذي طال انتظاره وأخيها وقد بلغ الخامسة والأربعين.. وتحديات الآخرين تتصاعد وتائِرُها لتُشكِّك في إمامته، بدعوى أنّ الإمام لا بدّ أن يلي أمره إمام مثله، ولم يحن لأخيها الذي يواجه تشكيكات الخصوم أن يولد خليفته الموعود... فربما ستلد الخيزران غير ما ينتظره المنتظرون من شيعة الإمام، الذين بدورهم يواجهون تحدّيات الخصوم، ولجاجة المشكِّكين، وشماتة الحاقدين، وخوض الخائضين في إمامة علي خليفة أبيه موسى.

وما الذي يفعله أولئك الواقفة على إمامة موسى غير مواجهة الرضا وشيعته بالاستدلال على صحة مزاعمهم، من كون الأمر قد وقف على موسى بن جعفر الذي لم يخلف إماماً بعده.

هذه الهواجس تتزاحم في ذهن حكيمة، التي ما فتأت تراقب الموقف بحذرٍ عندما أخذ خيزران الطلق وأُطفئ المصباح... ارتاعت حكيمة من هول اللحظات الحاسمة، حتى واجَه حكيمةَ شيءٌ يتجلّى أمامهما، عليه شيء رقيق كهيئة الثوب، ونور يسطع من ذلك الوليد حتى أضاء البيت... لم تتمالَك حكيمة نفسها، حتى وثبت للوليد تأخذه برفق مصحوب برعدة اللحظات المهيبة، وهي تتناول ذلك الموعود إنّه (محمد).

سبحانك اللهم وبحمدك، كلّ شيء عجيب في ولادة هذا الحبيب القادم من ثنايا الانتظار الأليم، الذي أذاق (أبا محمد) والده الإمام صنوف الاعتراض وغصص

الشـــامتين الذين يأملون إحباط خلافة الله بكلّ ما لديهم من حول وقوة، ﴿وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِـــمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَـــرِهَ الكَافِرُونَ﴾(١).. تُتَمم حكيمة بهذه الهواجس وتلهج بالوليد الجديد... إنّه (محمد) يا أبا محمد...

وقد ناولته حكيمة بعد أن فتح الرضا باب الغرفة ليضعه في مهده؛ ليقول لها: (يا حكيمة الزمي مهده). لم تبارح حكيمة مهد محمدٍ حتى رأت في يومه الثالث ما لم تره في غيره... تُحدِّق حكيمة في الوليد الجديد الذي يرمق الســماء ببصره؛ لينظر يمينــاً وشمالاً فيتمتم بكلمات الوحدانية... نعم، تســمع حكيمة صوت الوليد في يومه الثالث: (أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله...) لم تتمالك حكيمة نفسها بعد أن أخذتها رعدة لا تحملها رجلاها المرتجفتان لتقوم بمشقّة كبيرة فتُخبر الإمام بأنّها رأت عجباً وسمعت عجباً..

أبا محمد، وليدك الميمون ما فتأت أُبارحه حتى يريني ما أعجب منه، إنّه يتشهّد، وتحكـــي له كلّ ما تراه بنـــبرات مرتجفة.. كان الإمام يدرك أنّهـــا مفاجئة لحكيمة ولغيرها في كلّ ما تراه من ولده الميمون، فيقول: (يا حكيمة، ما ترون من عجائبه أكثر).

❀ ❀ ❀

ويكـــبر (محمد) لتكبر فيه عناية أبيه الذي يتطلّع إليه بشـــغف مصحوب بعناية والده الإمـــام.. فهو الآن (أبو جعفر)، يخاطبه الإمام بكنيتـــه تعظيماً له، وتوقيراً لمقامه المقدّس.. إنّه أبو جعفر... وهو المولود المبارك يا يحيى..

ولم يكتم يحيى الصنعاني تســاؤلاته عن المولود الجديد، فيبادر الإمام متســائلاً: جعلـــت فداك، هو المولود المبارك؟ فيجيبه الإمام: (نعم يا يحيى، هذا المولود الذي

(١) سورة التوبة: ٣٢.

لم يولد في الإسلام مثله مولود أعظم بركةً على شيعتنا منه)(١).

ولم يجد الإمام الرضا بدّاً من التنويه بمنزلة أبي جعفر عليه السلام، فهو لحمة من رسول الله صلى الله عليه وآله، وهـــو روحه، بل هو بعضه، فقوله لابن نافع حين دخل عليه: (يا ابن نافع، سلِّم وأذعن له بالطاعة، فروحه روحي، وروحي روح رسول الله)(٢).

كان ابـــن نافـــع يدور في خلده منزلة أبي جعفر كيف هـــي؟ ولكنّه لم يتيقَّن أنّه خليفة أبيه، حتى ذكر الإمام أنّ ولده هو روح رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولا يعني قول الإمام إلاّ إشارة إلى نسب ولده، وأنّه ينتمي إلى رسول الله، فليس عند ابن نافع شك في ذلك، ولم يخفَ على أحدٍ ولا على ابن نافع ذلك، بل أراد الإمام أن ينوِّه عن وراثة أبي جعفر له، ومن ثم وراثته لرسول الله، فهو روحه يا ابن نافع... وليس بعد ذلك تفصيل...

كان أبو جعفر يتلقّى الرسائل من أبيه (المبعد) إلى خراسان.. وكان الوالد يراقب عن كثب أحوال أبي جعفر، فكانت بينهما مراســـلات تفصح عن جلالة (محمد) بالرغم من صغر سِنِّه، وكان الرضا يُتحِف ولده بأنواع التبجيل، وفوق ذاك فقد كان يفديه.. فأيّ منزلةٍ هي إذن؟ وأيّ كرامةٍ تُحيط بالمذخور لوراثة الإمامة؟! كان الجواد عليه السلام يقرأ في ثنايا رســـائل والده عطفاً مشوباً بشـــوق البعد وعناء الفراق... وكان يتطلّع برسائل والده فيقرأ فيها عنايةً تنطوي فيها حرارة الشوق مع قداسة التعظيم، وهـــو أمر لا يقف عند حدود المراســـلات، أو يندرج في شـــؤون المخاطبات، أو يرتسم في ملاكات التشريف بقدر ما هو تنويه على أمرٍ خطير، ومكانة جسيمة لا تكشفها إلاّ مخاطبات الإمام لأبي جعفر حين يكتب لَه: بسم الله الرحمن الرحيم، أبقاك الله طويلاً، وأعاذ من عدوّك يا ولد، فداك أبوك..

---

(١) فروع الكافي: ٣٦١/٦، باب الموز.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ٣٨٨/٤.

وفي نفس الرسالة يخاطبه: وقد أوسع الله عليك كثيراً، يا بني فداك أبوك..

وفي قوله: (أبو جعفر وصيّي وخليفتي في أهلي من بعدي...) ينكشف سرّ مكانة أبي جعفر، وخطر منزلته عند أبيه... فهو وصيّه وخليفته.

❁ ❁ ❁

كان الرضا ملازماً لمهد (محمد) عدّة ليالٍ.. لا يفارقه، وهو أمر أثار استغراب أحدهم، وسأل الرضا عليه السلام عن سبب ذلك؟ وهل ملازمته لمهد الوليد تعويذاً له من عين الحاسدين؟..

أجل، لم يدرك المتسائل سرّ هذه الملازمة، وظنّه أنّها ملازمة الوالد لوليده الوحيد الذي يخشى عليه كيد الحاسدين... ولم يتبيّن لهذا السائل أنّه أمر عظيم يكتنف هذه الملازمة ليالي عدة..

إنّه أمرٌ أعظم من أن يدركه هذا وغيره، فيكتفي الإمام عليه السلام بأنّ ذلك من أسرار الوراثة وخصائص الإمامة... إنّه العلم يا هذا،.. وأيّ علم هو يتلقّاه أبو جعفر في مهده؟ ولم يزد الإمام على أكثر من قوله: (ويحك! ليس هذا عوذة، إنّما أغرّه بالعلم غرّاً)[1].

وهكذا يكبر أبو جعفر، ويكبر معه علمه ورعاية الوالد الحبيب... وأيّ لحظاتٍ هي، وأبو جعفر يراقب والده وقد ودّع البيت وداع من لا يرجع بعد سفره هذا؟...

ولم يترضِ أبو جعفر أن تمرّ هذه اللحظات العصبية إلاّ ليعبّر عن ألمه واستيائه لما سيفعل بوالده المعظّم.. وهل يخفى على أبي جعفر ما تنطوي عليه الأيام الزاخرة بالمفاجئات؟ وهل فات أبو جعفر الصبيّ الرباعيّ أو الخماسيّ أن لا يدرك ما هو

(١) الإمام الجواد سيرة وتاريخ، عدنان الحسيني: ١٦.

فيـــه أبوه؟ وهل خفي على الرضا ما تُكِنّه نفس أبي جعفر وتنطوي عليه من معرفة المستقبل بتفاصيله؟!

ولم يستغرب الرضا ما بدا على أبي جعفر ولده من قلق وهمّ وحزن عبّر عنه بلزومه الحجر، ولم يبارحه حتى جاء والده فاســتجاب إليه، وبقي موفّق الخادم متعجّباً ممّا يراه من هذا الصبي الحزين على فراق والده!

وأيّ صـــبيٍّ في الرابعة يدرك ما تجري الأحداث والوقائـــع ممّا يجعل موفّقاً الخادم متحـــيّراً لإدراك أبي جعفر خطورة الأمور التي ســتؤول إلى تصفية الإمام؟ ولم يَجرِ الخادم موفّق فعل شيء وهو يرى الصبي (محمداً) لم يبرح الحجر...

فهذا أُمية بن علي القيســي[1] الشامي يحكي لنا مشــاهداته عن سلوك الصبيّ الذي يرافق والده عند طوافه، قال:

كنت مع أبي الحســن عليه السلام بمكّة في السنة التي حجّ فيها، ثم صار إلى خراســان ومعه أبو جعفر، وأبو الحســن عليه السلام يودّع البيت، فلمّا قضى طوافه عدل إلى المقام فصلّى عنده، فصار أبو جعفر إلى الحجر فجلس فيه فأطال، فقال له موفّق: قم جعلت فداك، فقال: (ما أُريد أن أبرح من مكاني هذا إلاّ أن يشــاء الله)، واستبان في وجهه الغمّ، فأتى موفّقٌ أبا الحســن عليه السلام فقــال له: جعلت فداك، قد جلس أبو جعفر في الحجر، وهو يأبى أن يقوم، فقام أبو الحســن عليه السلام فأتى أبا جعفر فقال: (قم يا حبيبي) فقال عليه السلام: (ما أُريد أن أبرح من مكاني هذا)، قــال عليه السلام: (بلى يا حبيبي) ثم قــال عليه السلام: (كيف أقوم وقد ودّعت البيــت وداعاً لا ترجع إليه؟)، فقال له عليه السلام: (قم يا حبيبي) فقام معه[2].

(١) معجم رجال الحديث: ٤/١٤٤، ت١٥٤٨. وفيه في نسخة: (القَبَسي).

(٢) كشف الغمة: ٢/٨٧٤.

ولم يُدرك الباقون نعي (محمدٍ) لوالده الإمام... فلعلّ في نفوس هؤلاء تكمن حيرة الموقف، وهيبة التأبين، وقداسة النعي المستوحى من الغيب...

إنهُ الغيب يا سادة... وأنتم تستشعرون أمراً لم تُدركوهُ بعد.. فما يجري بين الإمام وبين ولده نفثات علم مخزونٍ في صدر الصبيّ المفجوع بفراق والده... وحشاشته الحرَّى تتأجّج حزناً لما انتهى إليه من علم بفراق والده الإمام... ولعلّكم ظننتم إنّه لَهُوَ الصبيّ الذي لم يُبارح المكان إلاّ بأمرٍ والده.. وأنتم لم تدركوا أنّه أبو جعفر الإمام القادم، والتي ستنتهي إليه مقاليد خلافة الله..

أبو جعفر الإمام.. الإمامة المبكِّرة..

ولم يلبث الإمام الرضا في خراسان حتى تمت المؤامرة... إنها مؤامرات اللعب السياسية التي زاولها المأمون.. ولم يكن من أمر غير إنهاء المرحلة الحرجة من الحياة السياسية للعباسيين.. وتنافسات الأطراف المتنازعة تؤجج لظى التسابق السياسي الذي ينتهي بشهادة الرضا مسموماً سنة (٢٠٣) للهجرة في صفر من ذلك العام.

ويصل خبر نعي الإمام الرضا عليه السلام إلى المدينة، وأبو جعفر يومها في السابعة من العمر... كان الموقف مضطرباً.. فالتجربة الجديدة في تولّي الإمامة المبكّرة أمرٌ لم يألفه الناس، وحتى شيعة الإمام فإنّهم لم يألفوا إمامة الصبيّ وهو في السابعة، فأخذوا يتجاذبون الحديث عن صلاحية الإمامة لهذه السنّ المبكرة.. إنّها محنة التسليم لأمر الله تعالى حين يأتي وليّه الحكم وهو صبيّ... وإذا غابت مسوّغات الإمامة المبكرة فإنّ القرآن لم يغبْ عن أذهان الناس حين يذكرّهم بالصبيّين اللذَين آتاهما الله الحكم والكتاب ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً﴾(١) وكان يحيى معجزة احتجّ بها الله علىعباده...

ولم تكن مرحلة يحيى وحدها معجزة، فإنّ في عيسى تتكرّر معجزة النبوة المبكّرة، ولا تزال التجربة تختبر الناس في تسليمهم لأمره تعالى... كانت نبوة عيسى امتحاناً عسيراً لأولئك الذين يتساءلون عن أمر الصبيّ عيسى كيف يكون نبياً؟ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيَّاً ۞ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيَّاً ۞ وجَعَلَنِي مُبَارَكَاً أَيْنَ مَا كُنتُ وأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيَّاً ۞ وَبَرَّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارَاً شَقِيَّاً ۞ والسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَومَ أُبْعَثُ حَيّاً ۞ ذلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة مريم: ١٢.

(٢) سورة مريم: ٢٩-٣٤.

وذلــك محمد بن علي الذي فيه يمترون، بل فيه يضطربون.. وفيه يخوضون.. ولم يكن الرضا قد غاب عنه ما توجّس منه أصحابه في صغر سِنِّ ولده الخليفة والإمام القادم... هي تجربتهم الأولى في الإمامة المبكّرة..

كان أصحاب الرضا يتساءلون عن أمر ذلك.. وكان الخيرانيّ يروي عن أبيه هذا الموقف الذي يبيّن تصورات شــيعة الإمام ومواليه، قال: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن عليه السلام بخراسان، فقال له قائل: يا سيدي، إن كان كون فإلى من؟ قال: (إلى أبي جعفر ابني) فكأنّ القائل اســتصغر ســنّ أبي جعفر عليه السلام، فقال: أبو الحسن عليه السلام: (إنّ الله تبارك وتعالى بعث عيسى بن مريم رسولاً نبياً، صاحب شريعةٍ مبتدأة في أصغر من السِنّ الذي فيه أبو جعفر عليه السلام)[1].

وفي رواية صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام: قد كنّا نســألك قبل أن يهب لــك الله أبا جعفر؟ فكنت تقــول: (يهب الله لي غلاماً)، فقد وهبه الله لك، وقرَّ عيوننا به، فلا أرانا الله يومك، فإن كان كون فإلى مَن؟ فأشــار بيده إلى أبي جعفر وهو قائم بين يديه، فقلت له: جعلت فداك، وهذا ابن ثلاث ســنين؟ قال: (وما يضرّ من ذلك! قد قام عيسى بالحجة وهو ابن أقلّ من ثلاث سنين)[2].

وروى الكشّــي في رجاله بإسناده، عن أبي الحســين بن موسى بن جعفر قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام بالمدينة وعنده عليّ بن جعفر، وأعرابي من أهل المدينة جالس، فقال لي الأعرابي: مَن هذا الفتى؟ وأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام، قلت: هذا وصيّ رســول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا ســبحان الله! رسول الله قد مات منذ مئتي سنة وكذا وكذا سنة، وهذا حدث كيف يكون؟![3]

هكــذا يضطرب الناس في إمامة أبي جعفر السُــباعيّ، فهي تجربتهم الجديدة في

(١) أصول الكافي: ١/٣٢٢، ح١٣.

(٢) الفصول المهمة لابن الصبّاغ: ٢٦١.

(٣) رجال الكشّي: نقله عنه معجم رجال الخوئي: ٢/٣١٦، ضمن/ ٧٩٧٩.

المعرفة، والتسليم لإمامة مبكّرة شاء الله أن يجعلها وراثة آبائه المعصومين... وهذا علي بن جعفر عمّ أبيه يمر بتجربة الإمامة المبكرة ليتصاغر لأمر الله ويذعن لإرادته في أوليائه المكرّمين...

كان عليّ بن جعفر قد ناهز الثمانين عاماً، وهو عمّ أبيه -أي عمّ الرضا- قد عرف منزلة أبي جعفر، وأدرك أنّ الإمامة ليست بالسِنّ والشيخوخة وغيرها... إنّما هو أمر إلهي... سرّ إلهيّ... مكنون من مكنونات الغيب، لا يحلّ غوامضه إلاّ التسليم لأمره تعالى.. وهكذا فعل علي بن جعفر... فقد أصاب هذا الشيخ في فعله لأبي جعفر وفي تسليمه لأمر الله... كان عليّ بن جعفر نموذجاً رائعاً من نماذج الطاعة والتسليم لأمر لا يعرف منه إلاّ أنّه (أمر الله)...

روى محمد بن الحسن بن عمّار قال: كنت عند علي بن جعفر الصادق جالساً بالمدينة، وكنت أقمت عنده سنتين أكتب عنه ما سمع من أخيه -يعني أبا الحسن موسى الكاظم عليه السلام- إذ دخل عليه أبو جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فوثب علي بن جعفر رحمه الله بلا حذاء ولا رداء، فقبّل يده وعظّمه، فقال له أبو جعفر عليه السلام: (يا عمّ، اجلس رحمك الله)، فقال: يا سيدي، كيف أجلس وأنت قائم؟

فلمّا رجع عليّ بن جعفر إلى مجلسه جعل أصحابه يوبّخونه ويقولون: أنت عمّ أبيه وأنت تفعل به هذا الفعل؟! فقال: اسكتوا، إذا كان الله عزّ وجلّ -وقبض على لحيته- لم يؤهّل هذه الشيبة، وأهّل هذا الفتى ووضعه حيث وضعه، أنكر فضله؟! نعوذ بالله ممّا تقولون، بل أنا له عبد[١].

هكذا كان عليّ عمّ أبيه... الشيخ المحدِّث.. الفقيه... شيخ الهاشميّين سنّاً.. لازم جعفر الإمام والده.. وموسى الإمام أخاه.. وعليّ الإمام ابن أخيه... روى

(١) الكافي: ١/ ٣٢٢، ح١٢.

عنهم وسمـع أحاديثهم.. وتفقّه بفقههم حتى صار علـيّ الفقيه والمحدِّث ونقيب العلويّين في وقته.. هو اليوم يخضع لإمامة ابن أخيه الصبيّ السُـباعيّ... ولا يرى شـيخ الهاشميين ونقيبهـم ضيراً أن يتصاغر للإمام أبي جعفـر، وأن يعظِّم مقامه، ويراعـي حقّه... فقد تربّى في كنف ثلاثة أئمّـة... فعليه اليوم أن يظهر ما تأدّب عليه من التسـليم والطاعة والاتّباع لإمام وقته.. خليفة أبيه.. بل خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله.. وكان الناس يوبّخون الشيخ على توقيره لهذا الصبيّ السُباعيّ.. إنّهم لا يدركون إلاّ أنّه الصبي (محمد).. وعلي لا يدرك عن محمدٍ إلاّ أنّه الإمام... الحجة.. خليفة أبيه... بل خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله.

محمد بن عليّ.. وصيّ آبائه

كانـــت إمامة أبي جعفر تعـــنى برعاية آبائه.. وعناية أســـلافه المعصومين.. إنّها وصاية تتعدّى تقليدية الأعراف الأُسرية في الحفيد القادم... وكان (محمد) أملَ من ســـبقه ليقوم بالأمر.. فلعلّ (محمداً) الصبيّ ســـيعاني صخب المشكّكين وضجيج المعترضين في الإمامـــة المبكّرة.. التجربـــة الأولى... والعملية الجديدة في الإعجاز الإلهي تتعدّى حســـابات أولئك الذين تتزعزع في نفوســـهم إرادة التسليم للغيب، والإذعان للمعجزة...

كانت بوادر الإمامة القادمة من ثنايا الغيب تحمل أسرار التحدّي للوراثة الملوكية في بـــني العباس... وفي بني أُميّة من قبل... فالوراثتان الأُموية والعباســـية ترتســـم فيهما ملامح كســـروية في الطاعة وقيصرية في التســـليم، فكســـرى يرث كسرى، وقيصـــر محلّ قيصر، والجميع يغضَ الطـــرف عن صلاحية المورّث وأهلية الوريث.. إنّها تقليدية الملك، وأعراف الســـلطنة في اولئك القياصرة والأكاســـرة.. وفي هؤلاء الأُمويين والعباسيين.. فالجميع تجمعهم الوراثة الدنيوية، وليست هي وراثة إلهية كما يزعمون.. إذن إمامة (محمد) ســـتكون تحدّياً لبني العباس، وإبطالاً لأكذوبتهم في وراثة رسول الله...

والأمر مختلف الآن.. (فمحمـــد) الإمام يحظى برعاية خاصة.. و (محمد) الآن يحفل بتراث نبوي ومعصومي يفوق تصورات أولئك المشاغبين، والمعطّلين لإرادة الله في عباده.. أُكذوبة المدّعين تفتضح اليوم، فأبو جعفر الإمام.. السُباعيّ من العمر يتحدّى عراقيل السياســـة وطيش المغامرين في السلطة، وأبو جعفر ينتظر تحدّيات أولئك العابثين الذين يحاولون عبثاً أن يُحبِطوا مشروع أبي جعفر في الإمامة المبكّرة.. مشروع آبائه.. مشروع النبيّ.. بل المشروع الإلهي بعد هذا وذاك..

بشارة النبي صلى الله عليه وآله

كان النبي صلى الله عليه وآله يتطلّع ما وراء الغيب.. يترنّم بكلمات لم يدركها أولئك النفر الذين يحيطون به صلى الله عليه وآله، إلاّ أنّهم يستمعون إلى مناجاة تسمو في روعتها تراتيل النبوة في سفر الغيب المكنون... إنّهم لا يدركون شيئاً إلاّ أنّها متعة الإستماع لكلمات يضوع شذاها فمه الطاهر... فالنبي الآن يستذكر حفيده السابع.. يفدّيه بأبيه، ويذكر أنّ أمّه هي خِيرة الإماء المنتجبة، يستمعون إليه وهو يقول: (بأبي ابن خِيرة الإماء، ابن النوبية الطيّبة الفم، المنتجبة الرحم)[1].

ولم يُخفِ النبي صلى الله عليه وآله عن جابر بن عبد الله الأنصاري أسماء أوصيائه وخلفائه من بعده.. فجابر يحبوه النبي بكرامة البشارة، إنّه يحمّله أمانة التبليغ، وجابر قَمِين أن يؤدّي الأمانة كما ائتمنه النبي صلى الله عليه وآله، كيف لا وجابر يتشوّق إلى الحديث الغيب؟ وأيّ رجلٍ لا يفخر بهذه المهمة؟! فحقيق بجابر أن يفخر وهو يتحدّث في مجلسه الذي يضمّ شيوخ الرواية، كجابر بن يزيد الجعفي وأمثاله، فقد سمع من جابر الأنصاري يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله:

(يا جابر، إن أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدي أوّلهم عليّ، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم عليّ بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف بالباقر، ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فاقرأه منّي السلام، ثم جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم القائم اسمه اسمي، وكنيته كنيتي محمد بن الحسن بن علي...)[2].

ولم يقتصر الأمر على ذكر وصايته صلى الله عليه وآله لحفيده الإمام القادم محمد بل كانت

---

(١) أصول الكافي: ٣٢٣/١، ضمن ح١٤.

(٢) كشف الغمّة للأربلي: ١٠٠٦/٢.

خلقتـــه النورية كآبائه الطاهرين موضع اهتمامـــه، وهي دلالة عظمته، وعلوُّ قدره، وكمال منزلته، فهو كآبائه شرفاً، ومرتبة، ومقاماً..

كان ﷺ ينقل مشـــاهداته عنـــد عروجه إلى الملكوت الأعلى، يـــروي نِعَمَ الله تعـــالى عليه وعلى ذرّيته، خلفائه من بعده، وأوصيائه على أُمته.. فلعلّ حديثه ذاع واســـتطار في آفاق الدنيا، كَسَـــرَيَانه في آفاق النفـــس المتلهّفة لمعرفة المجهول، كان يحدِّث أصحابه ﷺ فيقول:

(ليلة أُسرِيَ بي إلى السماء قال لي الجليل جلّ وعلا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مِـــنْ رَبِّهِ﴾[1]، قلت: والمؤمنون، قال: صدقت يا محمد، مَـــن خلّفتَ في أمّتـــك؟ قلت: خيرها، قال: علـــي بن أبي طالب؟ قلـــت: نعم يا ربِّ قال: يا محمـــد، إنّي اطَلعت إلى الأرض اطلاعة فاخترتُكَ منها، فشققت لك اسماً من أسمائي فلا أذكر في موضع إلاّ ذُكرتَ معي، فأنا المحمود وأنت محمد. ثم اطّلعت الثانية فاخترت علياً وشـــققت له اسماً من أسمائي، فأنـــا الأعلى وهو عليّ. يا محمد، إنّي خلقتك وخلقت علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولده من ســـنخ نورٍ من نوري، وعرضت ولايتكم على أهل السماوات وأهل الأرض فمن قبلها كان عندي من المؤمنين، ومن جحدها كان عندي مـــن الكافرين، يا محمد، لو أن عبداً من عبيدي عبدني حتى ينقطع، أو يصير كالشـــنّ البالي، ثم أتاني جاحداً لولايتكم ما غفرت له حتى يقرّ بولايتكم، يا محمد، أتحبّ أن تراهم؟ قلت: نعم يا ربِّ.

فقـــال لي: التفت عن يمين العرش، فالتفتّ فإذا أنا بعليّ، وفاطمة، والحسن، والحســـين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموســـى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن عليّ، وعليّ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

بن محمد، والحسن بن عليّ، والمهدي، في ضحضاح من نورٍ قياماً يصلّون وهو في وسطهم -يعني المهدي- كأنّه كوكب دري.

قال: يا محمد، هؤلاء الحجج، وهو الثائر من عترتك، وعزّتي وجلالي إنّه الحجّة الواجبة لأوليائي، والمنتقم من أعدائي)[1]

هكذا كان محمد النبي يبشِّر بمحمدٍ الوصيّ.. كان الجدّ يقرأ الحفيد على أنّه ملحمة الكرامة النبوية، وعطاء الرَبّ الذي لا ينضب.

(١) فرائد السمطين: ٢/٣١٩.

وموسى يبشّر أيضاً

كان موسى بن جعفر قد ورث غيب آبائه في قراءة المحنة.. إنّها محنة القدّيس، وقد غيبته طوامير السياسة في سجونها الحالكة، ومهمّة موسى الآن في صدِّ عادية أولئك المنكرين لإمامة ولده (علي) وحفيده (محمد) والآخرين من عترته المعصومين..

أجل؛ (المنكرين القادمين) قريباً على ظهر الأهواء، والمُمتطين صهوة الطمع وحبّ المال الواقفة... خطر يهدّد جهود النبي الذي بشّر باثني عشر نقيباً من أئمة الهدى، هم اليوم تواجههم دعوة الواقفة الذين وقفوا على إمامة موسى دون ولده الآخرين...

وموسى يقرأ غيب الأحداث، فهذا أبو حمزة البطائني وأمثاله يطمعون في حفنة مال مودّعة لديهم، فيخافون محاسبة القادم بعد موسى ليطالبهم بالمال، فأنكروا إمامته وألَّبوا عليه، ولعل (علياً عليه السلام) سيهب هذه الأموال المودّعة إذا ما علم أنّ أصحابها بحاجة إليها، لكنّه الطمع وحبّ المال أهوى بهم إلى مزالق النُكران ومهاوي الجحود.

ولم يألُ موسى بن جعفر جهداً في بذل جهود الوصية لولده وولد ولده، فهذا (علي بن موسى) يحظى بالعشرات من وصايا أبيه يحتج بها (علي) على منكري إمامته، وهذا (محمد) ولده مثله؛ فزحف دعوة الواقفة ومثلهم من أهل الأهواء ستصل إليه، ولا يهمّ (محمداً) الحفيد؛ بعد ما سمع الناس من فم موسى الإمام ووعوه وسلّم له بعضهم وجحده آخرون.. ولا يضرّ (محمد) جحد الجاحدين من شراذمة الواقفة وقطّاع الطرق من أهل الأهواء المنحرفة.

بعدما يقرأ أصحابه وصية جدّه لأحدهم كان محمد بن سنان يستمع لوصية

الإمام موســى بن جعفر في ولده وحفيده القادمين في زحمة الأهواء الهائجة، قال محمد بن ســنان: دخلت على أبي الحســن موســى عليه السلام من قبل أن يقدم العراق بسنة، وعليّ ابنه جالس بين يديه، فنظر إليَّ وقال: يا محمد، ستكون في هذه السنة حركة فلا تجزع لذلك، قال: قلت وما يكون جعلني الله فداك فقد أقلقتني؟

قال: أصير إلى هذا الطاغية، أما إنّه لا يبدأني منه سوء ومن الذي يكون بعده. قال: قلت: وما يكون جعلني الله فداك؟ قال: ﴿يُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَــاءُ﴾[1]، قال: قلت: وما ذلك جعلني الله فداك؟ قال: من ظلم ابني هذا حقّه وجحده إمامته من بعدي كان كمن ظلم عليّ بن أبي طالب عليه السلام إمامته وجحده حقه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: قلت: واللهِ لئن مدّ الله لي في العمر لأُسلِّمن له حقّه، ولأقرّنّ بإمامته وإمامة مــن يكون بعده، قال: قلت: ومن ذاك؟ قال: ابنــه محمد، قال: قلت: له الرضا والتسليم[2].

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٢) الغيبة للشيخ الطوسي: ٢٤-٢٥، والبحار: ١٩/٥٠، ح٤.

الإمام الرضا في مواجهة العاصفة

وتنبعث زوبعة التشكيك في إمكانية ولادة الإمام الرضا عليه السلام لولده (محمد)، فالرضا عليه السلام يتجاوز الأربعين من عمره ولم ينجب ولداً يرثه بعد، وكلّما تقدم العمر بالإمام تقدّمت أمامه تحدّيات الخصوم، ومواجهات المشكّكين، أولئك الواقفة أو الذين تأخذهم مدعيات الواقفة لإثبات دعاواهم في الوقوف على موسى بن جعفر، وتتصاعد وتيرة الاعتراض في أنّ علياً لم يلد ولداً، فكيف يكون إماماً يدعو إلى ولده الأربعة من سلالته ليكونوا أئمة؟!

كان الإمام الرضا يبشّر لولده القادم محمد، وبكلّ اطمئنان كان يتلقّى اعتراض هؤلاء وتشكيك أولئك، إنّها مرحلة الاختبار للثبات على إمامته، فتأخير ولادة (محمد) كانت لها مصالحها المسوّغة، فالمحنة هي محنة الاختبار، وعلى أولئك المدّعين أن يثبتوا أمام هذه العاصفة التي تهبّ من أطراف عدة، ولا داعي للحيرة في مّن يرث الإمام، إذا كان الأمر يخضع للتسليم والرضا للرضا من آل محمد فما معنى الحيرة والتردّد إذن؟ وإذا كانت مرحلة الحسم تعني مرحلة التصفية للإذعان والتسليم فإنّ موجبات تأخير ولادة (محمد) الموعودة معقولة إذن، بل ضرورية جداً لقطع دابر النفاق والتردّد، وستكون مسألة الثبات على إمامة الرضا هي ثبات الخاصة على ولايته بعد ذلك، بل موت الرضا بعد ولادة محمد بخمسٍ أو ستِّ سنواتٍ مرحلة للامتحان كذلك، فالتسليم للإمامة المبكّرة جولةٌ أخرى من ذلك الاختبارِ العسير.

كان (ابن قياما) تحدّياً جدّياً للرضا، فهو يشكّك في إمامته عن طريق التساؤل عن الوريث الذي لم يولد بعد، فكيف يكون إماماً ولم يولد له ولد؟ هذا منطق التحدّي، وتلك هي تداعيات العاصفة من التشكيك.

كتب (ابن قياما) إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام كتاباً يقول فيه:

كيف تكون إماماً وليس لك ولد؟

فأجابه ابو الحسن عليه السلام: (وما علمك أن لا يكون لي ولد؟ واللهِ لا تنقضي الأيام والليالي حتى يرزقني الله ولداً يُفرِّق بين الحقّ والباطل)[١].

قال أحمد بن محمد بن أبي نصر: قال ابن النجاشي: مَن الإمام بعد صاحبكم؟ فدخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأخبرته، فقال: (الإمام من بعدي ابني)، ثم قال: هل يجرأ أحد أن يقول:ابني وليس له ولد؟![٢]

ولم يكتفِ ابن قياما بكتاب التحدّي المبعوث للرضا في نكران إمامته؛ لعدم ولادة من يرثه حتى يسأله بعد ما لقيه: هكذا تخلو الأرض من أن يكون فيها إمام؟

فقال الرضا: (لا).

قال: فيكون فيها اثنان؟

قال: (لا، إلاّ وأحدهما صامت لا يتكلّم).

قال قد علمت أنّك لست بإمام.

قال: (ومن أين علمت؟)

قال: إنّه ليس لك ولد، وإنّما هي في العقب

فقال له: (فو الله لا تمضي الأيام والليالي حتى يولد لي ذكر من صلبي يقوم مثل مقامي، يحقّ الحقّ ويبطل الباطل)[٣].

ويسأله آخر: أتكون الإمامة في عمٍّ أو خال؟

(١) كشف الغمّة للأربلي: ٨٦٥/٢.

(٢) الغيبة للشيخ الطوسي: ٤٨.

(٣) البحار: ٣٤/٥٠، عن رجال الكشي: ص٥٩٦/١٠٤٤.

فقال الرضا: (لا).

فقال: في أخٍ؟

قال: (لا).

قال (أي السائل): ففي من؟

قال: (في ولدي) وهو يومئذٍ لا ولد له[١].

وهكـــذا يواجه الرضا تحدّيات أولئك المشـــكّكين، وتســـاؤلات المتحيّرين، وهو يجيبهم بكل اطمئنان: أنّه سيولد لي ولد يكون حجّة الله علىخلقه، وقد ولد محمد، وصدقت نبوءة الرضا وآبائه من قبل.

(١) البحار: ٣٥/٥٠، ح٢١.

الأحداث الحاسمة

وفي صفر سنة (٢٠٣هـ) كان الأجل موعده مع الإمام الرضا عليه السلام بعد تصفية المأمون له، فرحل راضياً مرضيّاً، وكان (محمد) الثماني تنتظره وراثة أبيه في الإمامة، فهو وحيده الذي تشخص إليه الأبصار،وترمقه أنظار العامة والخاصة، فمحمد اليوم يتصدّى لمهمّة السماء.. وحداثة سنّه تثير تساؤلات هؤلاء وتحفّظات أولئك... إنّها محنة التسليم كذلك لإمامة مبكرة تستشعر معها محنة يحي الذي شهد له القرآن: ﴿وَآتَينَاهُ الحُكْمَ صَبيّاً﴾[1]، ونوّه عن عيسى وهو في مهده: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[2]. فلا غرابة إذن لدى اولئك النفر الذين لم تغب عنهم إرادة الله في عباده الذين اصطفى وهدى منهم ليكونوا حججه البالغة.. في خضمّ هذه التجاذبات الفكرية بين أتباع الإمام الجواد وبين مناوئيه يعلن المأمون دعوته للجواد بالمجيء إلى بغداد، ولم تكن تلك الدعوة إلاّ ضريبة الظرف الخانق الذي يعيشه المأمون، فهو الآن محاصر بتهمة تصفية الإمام الرضا، وآل علي عليه السلام ومن تبعهم لا يتردّدون في تهمة الخيانة التي ارتكبها المأمون في شأن الرضا، وهم اليوم يعيدون قواهم للاقتصاص من المأمون.

فبالأمس القريب استجابت ثوراتهم للهدوء بعد غليان لم يمهل العباسيين إلاّ قتلاً وتنكيلاً، وكانت هدنتهم استجابة لظروف الإمام الرضا الذي يتحمل مسؤولية هذه الثورات على المستوى الرسمي والإمام تحرجه تحركات العلويين،فالمأمون لا يلقي باللائمة إلاّ على الرضا حينذاك، فكان العلويون أكثر تعقّلاً من أن يحرجوا الإمام في ظرف كهذا، أمّا اليوم فلا معنى للسكوت عن دم مهدور متّهم فيه المأمون ونظامه، ولا يجد آل عليٍّ عليه السلام غير النهوض بوجه عاديَة الغدر والخيانة التي يمثّلها نظام المأمون، هذا من جهة.

(١) سورة مريم: الآية ١٢.

(٢) سورة مريم: الآية ٣٠.

ومن جهةٍ أخرى فإنّ العباســيين يشعرون بالانقباض ممّا تصرف به المأمون وقد خشي هؤلاءِ من ضياع ملكهم بعدما أعلن المأمون أنّ للرضا ولاية العهد، فكانت هواجس العباسيين تتّجه نحو ملك أهدره المأمون بعمله هذا، فهم لا يرتضون بغير الاقتصاص منه ليرجعوا ملكاً مضاعاً وسلطنة مقطّعة الأوصال.

هكذا كانت الأوضاع بُعَيدَ شهادة الإمام الرضا عليه السلام ولم يكن مندوحة للمأمون غير أن يعيد الكرّة ثانيةً مع الجواد، فالجواد الثُماني من العمر لعلّه يفشــل في خطّة أبيه ويساعد المأمون في إنجاح خطته، والمأمون يريد أن يعيد تجربته ليُعوِّض ما خسره بالأمس. هذه هي هواجس المأمون الخائبة إذن..

ولم يكن للجواد مندوحة ســوى القبول بعــرض المأمون تحت طائلة ضغوط هي نفســها التي واجهها والده من قبل.. ويحطّ الجــواد رحله في بغداد الجولة الخطيرة من مهامّ إمامته، فهو الآن يواجه عدوّاً قد أحســن اللعبة في التعامل مع الظروف الهائجة والــتي تحيط به وبمصيره المجهول في ظلّ ما ينتظــره من معارضتين قويتين: إحداهما تقليدية محكمة تلك هي معارضة العلويين، والأُخرى مستجدّة متزلزلة تلك هي معارضة العباســيين. وبين المعارضتين بون شاســع من الرفض والقبول، أو من التمرّد والسكوت، وبين المعارضتين رؤية الاختلاف، أو فقل: الخلاف كما هو بين أُطروحتيهما المتناقضتين.

ولم تقنــع المعارضتين بالذي يفعله المأمون مــن تقريب الجواد إليه، أو الأصحّ في الواقع: تقرب المأمون من الجواد ليقضي أمراً لا يخفى على أحدٍ منهم.

ولم يقتنــع آل عليٍّ عليهم السلام بسياســة المأمون الجديدة، فهي لا تتعدّى إســكات الخصــوم والإظهار بمظهر الحريص المتباكي على حقوق أهل البيت، ولم تكن هذه الخديعة تســتغفل العلويين، حينذاك، فحسبهم ما كان من مصير الرضا على يده، وما ينتظر الجواد مصير أبيه.

فلـم تهدأ للعلويين ثـورة، ولا تحطّ لهم أوزار فـورة، فثوراتهم ملأت أركان مملكة المأمون، فكان لصدى ثورة أبي السـرايا وآثارها ما جعلت المأمون يعيش ذكرياتها المرعبة، وهواجسها المهدّدة له، ولسطوته على أركان دولته، حتّى كأنّ ثورته لا زالت تشحذ همم الثوريين من آل علي عليهم السلام.

فكانت حركة عبد الله بن جعفر بن إبراهيم بن الحسـن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام[1]، وثورة عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام في اليمن، فبايعه خلق كثير[2].

وكان للقمّيّـين هياجٌ وتمرّدٌ على حكومة المأمون في سـنة (٢١٠)، انتهت بثورة مسلّحة تصدّى لها المأمون بقيادة عليّ بن هشام وجيش آخر بقيادة عجيف بن عنبسـة، ويبدو أنّها صدى لتذمّر القمّيّين المعروفين بولائهم لآل علي عليهم السلام؛ جرّاء سياسة المأمون الطائشة مع الإمام الرضا، وإن كان المؤرّخون يجعلونها ثورة اقتصادية يدفعها كثرة الخراج الذي فرضه عليهم ا لمأمون آنذاك[3].

ظروف حرجة إذن تحيط بالمأمون، وتكاد تطيح به لو لا إجراءاته المشدّدة فضلاً عن سياساته التي كان يُسكِّت بها أولئك الثائرين، أو يهادنهم بعدما أقدم إليه محمد بـن الرضا والمأمون متهم بتصفية والده، والمأمون كذلك يتمتّع بحصانة ولو ظاهرية من تفاقم المدّ الثوري لشـيعة علي، فهو الآن عرف كيف يتعامل مع تلك الثورات المؤجّلـة، أو يهادن أولئك العلويين المسـلّحين الذين ما فتئـوا يتربصون للمأمون ولأمثالهم من العباسيين.

ولم يكتفِ المأمون بتقريب (محمدٍ) إلى دار الخلافة، بل عمد إلى تزويجه من ابنته

(١) مقاتل الطالبيّين: ٤٥٣.

(٢) المجدي في أنساب الطالبيّين: ٢٩٥.

(٣) راجع تاريخ الطبري: ٧/ ١٨٤.

أمّ الفضل، كما ذكر الطبري ذلك، وأرّخَ أنّه في سنة (٢٠٢) زوّج المأمون عليّ ابن موسى ابنته أُمّ حبيب، وزوج محمد بن علي بن موسى ابنته أُمّ الفضل[١].

ولا ترجيح فيما أرّخه الطبري عندنا، إذ كان أبو جعفر في المدينة وكان له من العمر أقلّ من ثمانِ سنين، ولم يأتِ إلى خراسان بعد. نعم، فلعلّه عزم في هذه السنة تزويج أبي جعفر من ابنتهُ أمّ الفضل، إذ لم يكن للعباسيين رضاً في مثل هذا التزويج، بل أثار حفيظتهم وأزعجهم أيَّما إزعاج، فإنّ ذلك يعني مصاهرة سياسية غير محمودة لا يرتضيها بنو العباس، فذلك ضياع لملكهم وتفريط في أمرهم، هكذ تصوروه.

وللمأمون خلاف ما يرونه في الظاهر إذا أراد أن يتقرب لآل علي عليه السلام ولفتاهم هذا الذي زُقّ العلم زقّاً، وورث ما كان لآبائه من الحظوة في العلم والجلالة في القدر، والخطر في الأمور، هكذا قدّم المأمون أبا جعفر لبني العباس، وحقيقة الأمر غير ما يدّعيه من الحرص لأبي جعفر الجواد، فإنّ للمأمون حنكة السياسة في ترتيب الأُمور، وغدرة المناور في دفع التُهم، وإبعاد الخطر من معارضة العلويين الذين تحفّزوا للثأر من المأمون الذي قتل الرضا غيلة.

ولعلّ زواج الجواد محمد من ابنة المأمون كانت مناورة جديدة يرتكبها المأمون. فلمّا أراد المأمون أن يزوّج ابنته أُمّ الفضل أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام بلغ ذلك العباسيين، فغلظ عليهم، واستنكروه منه، وخافوا أن ينتهي الأمر معه إلى ما ينتهي مع الرضا عليه السلام، فخاضوا في ذلك، واجتمع منهم أهل بيته الأدنون منه، فقالوا:

> ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي عزمت عليه من تزويج ابن الرضا، فإنّا نخاف أن يخرج به عنّا أمر قد ملّكناه الله عزّ وجلَ وينزع منّا عزاً قد البسناه الله وقد عرفت ما بيننا وبين

(١) تاريخ الطبري: ١٤٩.

هؤلاء القـــوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشـــدون قبلك مـــن تبعيدهم والتصغير بهم، وقـــد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا ما عملـــت فكفانا الله المهم من ذلك فالله الله أن تردّنا على غمٍّ قد انحســـر عنّا، واصرف رأيك عن ابن الرضـــا، واعدل إلى مَن تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيره.

فقال لهم المأمون:

أمّا ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السـبب فيه، ولو أنصفتم القـــوم لكانوا أولى لكم. وأمّا ما كان يفعلـــه مَن قبلي بهم فقد كان قاطعاً للرحم.

ما كان منّي من اســتخلاف الرضا، ولقد ســألته أن يقوم بالأمر وأنزعه من نفسي فأبى، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

مؤهّلات أبي جعفر عند المأمون

وأمّا أبو جعفر محمد بن عليّ فقد اخترته لتبريزه على كافّة أهل الفضل في العلم والفضل مع صغر سنّه، والأعجوبة فيه بذلك، وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته منه، فيعلمون أنّ الرأي ما رأيت.

فقال له: إنّ هذا الفتى وإن راقك منه هديه فإنّه صبيّ لا معرفة له ولا فقه، فأمهِله ليتأدّب ثم اصنع ما تراه بعد ذلك.

فقال لهم: ويحكم، إنّي أعرَفُ بهذا الفتى منكم، وإنّ أهل هذا البيت علمهم من الله تعالى ومواده وإلهامه، لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبيّن لكم به ما وصفت لكم من حاله.

اقتراح العباسيّين على المأمون

قالوا قد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه، فخَلِّ بيننا وبينه لننصب مَن يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة، فإن أصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في أمره، وظهر للخاصة والعامة سديد رأي أمير المؤمنين فيه، وإن عجز عن ذلك فقد كفينا الخطب في معناه، فقال لهم المأمون: شأنكم وذلك متى أردتم.

فخرجوا من عنده واجتمع رأيهم على مسألة يحيى بن اكثم، وهو يومئذٍ قاضي الزمان، على أن يسأله مسألة لا يعرف الجواب فيها، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك، وعادوا إلى المأمون وسألوه أن يختار لهم يوماً للإجتماع، فأجابهم إلى ذلك.

المناظرة... الجولة الحاسمة

فاجتمعـوا في اليوم الذي اتفقوا عليه، وحضر معهم يحيى بن أكثم، وأمر المأمون أن يفرش لأبي جعفر دست، ويُجعل له فيه مِسْوَرَتَان[1]، ففعل ذلك، وخرج أبو جعفر وهو يومئذٍ ابن تسع سنين وأشهر، فجلس بين المِسوَرَتين، وجلس يحيى بن أكثم بين يديه، وقام الناس في مراتبهم، والمأمون جالس في دستٍ متّصلٍ بدست أبي جعفر عليه الصلاة والسلام.

فقال يحيى بن أكثم للمأمون: يأذن لي أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفرٍ عن مسألة؟

فقال له المأمون: استأذنه في ذلك، فأقبل عليه يحيى بن أكثم، فقال: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: (سل إن شئت).

قال يحيى: ما تقول جعلت فداك في مُحرمٍ قتل صيداً؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: (قتلهُ في حِلٍّ أو حرم؟ عالماً كان المحرم أو جاهلاً؟ قتلهُ عمداً أو خطأً؟ حرّاً كان المحرم أم عبداً؟ صغيراً كان أو كبيراً؟ مبتدأً بالقتل أو معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟ من صغار الصيد ام من كبارها؟ مُصِرّاً على ما فعل أو نادماً؟ في الليل كان قتله للصيد أم في النهار؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحجّ كان محرماً).

فتحيّر يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والإنقطاع، ولجلج حتى حتى عرف

---

(١) المِسْوَرُ والمِسْوَرَةُ: مُتَّكأ من أدَم، وجمعها المَساوِر، لسان العرب: ٤٢٨/٦ (مادة: سور).

جماعة أهل المجلس أمره. فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي، ثم نظر إلى أهل بيته فقال لهم: أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه؟

عرض المأمون على الإمام الجواد عليه السلام الزواج من ابنته

ثم أقبل على أبي جعفر عليه السلام فقال له: أتخطب يا أبا جعفر؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين)، فقال له المأمون: أخطب لنفسك جعلت فداك، قد رضيتك لنفسي، وأنا مزوِّجك أُمّ الفضل ابنتي وإن رغم قوم لذلك.

فقال أبو جعفر عليه السلام: (الحمد لله إقراراً بنعمته، ولا إله إلاّ الله إخلاصاً لوحدانيته، وصلّى الله على محمدٍ سيِّد بريته، والأصفياء من عترته.

أمّا بعد، فقد كان من فضل الله على الأنام أن أغناهم بالحلال عن الحرام، وقال سبحانه: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ثم إنّ محمد بن علي بن موسى يخطب أُمّ الفضل بنت عبد الله المأمون، وقد بذل لها من الصداق مهر جدّته فاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وآله، وهو خمسمائة درهم جياداً، فهل زوّجته يا أمير المؤمنين بها على هذا الصداق المذكور؟

فقال المأمون: نعم، قد زوجتك يا أبا جعفر أُمّ الفضل ابنتي على الصداق المذكور، فهل قبلت النكاح؟

قال أبو جعفر عليه السلام: (قد قبلت ذلك ورضيت به).

(١) النور: ٣٢.

مراسم الاحتفال في بلاط الخلافة

فأمــر المأمــون أن يقعد الناس على مراتبهم في الخاصــة والعامة. قال الرَيّان: ولم نلبث أن ســمعنا أصواتاً تشبه أصوات الملاّحين في محاوراتهم، فإذا الخدم يجرّون ســفينةً مصنوعةً من فضة مشــدودة بالحبال من الإبريســم، على عجلة مملوءة من الغالية، ثم أمــر المأمون أن تخضَب لحاء الخاصّة من تلك الغالية، ثــم مدّت إلى دار العامة فتطيبوا منهــا، ووُضعت الموائد فأكل الناس، وخرجت الجوائز إلى كلّ قومٍ على قدرهم.

توضيح الإمام مسألة فقهية

فلمّا تفرّق الناس بقي من الخاصة من بقي، قال المأمون لأبي جعفر عليه السلام: إن رأيــت جعلت فداك أن تذكر الفقه الذي فصّلته من وجوه من قتل المحرم لنعلمه ونستفيده.

فقــال أبو جعفر عليه السلام: (نعم، إنّ المحــرِم إذا قتل صيداً في الحِلّ وكان الصيد من ذوات الطير، وكان من كبارها فعليه شــاة، فإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفــاً، وإذا قتل فرخاً في الحِلّ فعليه حمــل قد فطم من اللبن، وإذا قتله في الحــرم فعليه الحمل وقيمة الفــرخ، فإذا كان من الوحش وكان حمار وحشٍ فعليه بقرة، وإن كان نَعامة فعليه بدنة، وإن كان ظبياً فعليه شاة، وإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكعبة.

وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه، وكان إحرامه بالحجّ نحره بمنى، وإن كان إحرامــه بالعمرة نحره بمكة، وجزاء الصيد على العالم والجاهل ســواء، وفــي العمد عليه المأثــم وهو موضوع عنه في الخطأ، والكفّــارة على الحرّ في

نفسه، وعلى السيد في عبده، والصغير لا كفّارة عليه، وهي على الكبير واجبة، والنادم يسقط ندمه عنه عقاب الآخرة، والمُصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة).

رغبة المأمون في إظهار فضل الإمام على يحيى وبني العباس

فقال المأمون: أحسنت يا أبا جعفر، أحسن الله إليك، فإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك.

فقال أبو جعفر عليه السلام ليحيى: أسألك؟

قال: ذلك إليك جعلت فداك، فإن عرفت جواب ما تسألني عنه، وإلاّ استفدته منك.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: (أخبرني عن رجل نظر إلى امرأة فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا ارتفع النهار حلّت له، فلمّا زالت الشمس حرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر حلّت له، فلمّا غربت الشمس حرمت عليه، فلمّا دخل وقت العشاء الآخرة حلّت له، ما حال هذه؟ وبماذا حلت له وحرمت عليه؟

فقال له يحيى بن أكثم: لا والله لا أهتدي إلى جواب هذا السؤال، ولا أعرف الوجه فيه، فإن رأيت أن تفيدناه.

فقال أبو جعفر عليه السلام: (هذه أمة لرجل من الناس، نظر إليها أجنبي في أول النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا ارتفع النهار ابتاعها من مولاها فحلّت له، فلمّا كان عند الظهر أعتقها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت العشاء الآخرة كفّر عن الظهار فحلّت له، فلمّا كان نصف الليل طلّقها واحدة فحرمت عليه، فلمّا كان عند الفجر راجعها فحلّت له).

ثناء المأمون على الإمام وقوة موقف المأمون أمام العباسيين

قال: فأقبل المأمون على من حضره من أهل بيته فقال لهم: هل فيكم من يجيب هذه المسألة بمثل هذا الجواب، أو يعرف القول فيما تقدّم من السؤال؟

قالوا: لا والله، إنّ أمير المؤمنين أعلم وما رأى.

فقال: ويحكم، إنّ أهل هذا البيت خُصّوا من الخلق بما ترون من الفضل، وإنّ صِغَر السنّ فيهم لا يمنعهم من الكمال.

اما علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين، وقبل منه الإسلام وحكم له به، ولم يَدعُ أحداً في سنّه غيره، وبايع الحسن والحسين وهما أبناء دون الستّ سنين ولم يبايع صبياً غيرهما؟

أوَلا تعلمون ما اختصّ الله به هؤلاءِ القوم، وإنّهم ذرّية بعضها من بعض، يجري لآخرهم ما يجري لأولهم؟

فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين، ثم نهض القوم.

الاحتفال الرسمي بزواج الإمام الجواد عليه السلام من أُمّ الفضل

فلمّا كان من الغد أحضر الناس، وحضر أبو جعفر عليه السلام وسائرالقُوّاد والحجّاب والخاصّة والعمال لتهنئة المأمون وأبي جعفر عليه السلام، فأُخرجت ثلاثة أطباق من الفضة، فيها بنادق مسك وزعفران، معجون في أجواف تلك البنادق رقاع مكتوبة

بأمــوال جزيلة، وعطايا سَــنِيَّة، وإقطاعات، فأمر المأمــون بنثرها على القوم من خاصته، فكان كلّ من وقع في يده بندقة أخرج الرقعة التي فيها والتمســه فأطلق يــده له، ووضعت البدر، فنثر ما فيها على القــوّاد وغيرهم، وانصرف الناس وهم أغنياء بالجوائز والعطايا، وتقدم المأمون بالصدقة على كافة المســاكين، ولم يزل مكرماً لأبــي جعفر عليه السلام معظماً لقدره مدّة حياته، يؤثره على ولده وجماعة أهل بيته[1].

ولم نجد تصويراً للواقع أقرب من هذه الرواية، والتي حفلت بقراءاتٍ عدّة:

(١) البحار: ٥٠/ ٧٤-٧٩.

القراءات المتعدّدة لمواقف المأمون من الإمام عليه السلام

القراءة الأولى:

دعــوة المأمون لأبي جعفر الجواد عليه السلام وإقامتــه في العاصمة أضاف لقناعاتنا مؤشّراً آخر على تورّط المأمون في اغتيال الإمام الرضا وتصفيته جسديّاً، ومحاولة المأمــون إبعاد هذه التهمــة عنه، فضلاً عن امتصاص النقمــة الجماهيرية لدى الأوســاط العامة من المسلمين وخصوصاً شيعة الإمام، الذين باتوا يدركون أهمية المعارضة ضد النظام، ومحاولة تنظيم صفوفهم لإيقاف الانتهاكات التي ارتكبها المأمــون ونظامه من إجبار الإمام الرضا عليه السلام على مغــادرة المدينة والإقامة في خراسان، وفرض قبول ولاية العهد بالتهديد والقوة، حتى النهاية التي انتهت إليها مخطّطات المأمون من اغتيال مشــروعه السياســي الذي تبنّاه، وهو المصالحة مع الأطراف الشــيعية والعمــل على إيجاد هدنة لوقف الاحتجاجات الشــيعية ومعارضتها، وقــد احترمت هذه القواعد رغبة المأمون فــي إيجاد مخرج للأزمة السياســية بينه وبين المعارضة الشــيعية، فضلاً عن منح الثقة لنظام المأمون في الأخذ بزمام المبادرة في تنقية الأجواء الملبّدة بغيوم القطيعة دائماً، والمتوترة بين البيتين: العباسي الحاكم، والعلوي المعارض.

إلاّ أن المأمون لم يحسن المهمة، فأودى بمشروعه ودعاواه الإصلاحية؛ وذلك بتعرض الإمام الرضا عليه السلام للتصفية على يديه، كما مرّ.

واليــوم يريد المأمون ترميم هذه المحاولة الإصلاحية بدعوة الإمام الجواد عليه السلام للإقامة عنده، إلاّ أنّه أخذت المحاولة هذه المرة منحىً آخر، وهو تأمين جانب الإمام الجواد خشية أن تصدر من قبل الإمام محاولة الثأر والانتقام لوالده –هكذا تصور المأمون، وذلك على أســاس الحســابات السياســية المتعارفة في البلاط العباســي والتي ابتعــد عنها أهل البيت عليهم السلام تماماً– فلعــلّ الإمام يوعز لقواعده

الشيعية بالتحرك ضد النظام وإعلان التمرد أو الانتفاضات وحتى الثورات الشعبية، إلاّ أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام لم ينتهجوا هذا الأسلوب المادي في المواجهة مع الحاكم، بقدر ما أرادوا عليهم السلام الإبقاء على وحدة الأمّة والعمل على تربيتها الروحية والأخلاقية، وأي تقدم في هذا المضمار يعدّ نجاحاً كبيراً في مهمّة الإمام عليه السلام وإنجازاً يحقِّقه على صعيد تنفيذ الرسالة، وتحقيق الأُطروحة الإلهية في تكامل الإنسان وتنامي المجتمع الرسالي.

هذا أحد الأسباب -كما نرى- من دعوة المأمون للإمام عليه السلام إلى الإقامة عنده والزواج بابنة المأمون تنفيذاً لرغبته.

القراءة الثانية:

يتطلّع المأمون بكلّ ثقةٍ إلى قراءة المجريات التأريخية على أساس الواقع الموضوعي بكلّ تجرد، فهو بغضّ النظر عن دوافعه لهذه القراءات التأريخية ودواعيه المختلفة فإنّ تحليله لسبب القطيعة بين العباسيين وبين العلويين ببيان مظلمة العلويين ممّا ارتكبه العباسيون من قطيعة الرحم، (وأمّا ما كان يفعله من قبلي بهم، فقد كان قاطعاً للرحم)[١]، فإلقاء المسؤولية على الجانب العباسي تنظير للمسيرة التأريخية وحقائقها المختفية وراء حجب الاعتذار الذي تعهّدته الكتابات التأريخية الدائرة في فلك النظام، والمأمون اليوم يكشف عن هذه الخفايا؛ ليجسّد الحَيف الذي عاناه أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم.

ولا يهمنا دوافع المأمون من موقفه هذا بقدر ما هي محاولة لتعزيز وجهة نظره في اتخاذ إجراءاتٍ لتقريب العلويين، والدفاع عن سياسته الجديدة التي فاجَأَ بها بني أبيه من العباسيين، فإلقاء اللائمة على السياسة العباسية في عدائها التقليدي للعلويين عزّز الموقف الجديد لتوجّهات المأمون. وبهذا التنظير كسب المأمون

(١) مناقب آل الرسول للنجف آبادي: ص٢٠٩.

جولة النزاع الأيديولوجي بين التوجّهين العباسيين: العباسية التقليدية التي يقودها عباسيون محافظون، والعباسية المأمونية التي يتزعّمها المأمون وتياره الإصلاحي المنفتح لإيجاد مخرج لأزمة العلاقة المتشنّجة بينهم وبين آلِ عليٍّ الأقرب إلى قلوب الناس، والأحق بهذا الأمر، وعلى أساس قناعات جديدة بالإهتمام لاستنادها على أدلة شرعية منطقية.

القراءة الثالثة:

تُظهر الرواية وجودَ تجاذباتٍ فكريةٍ بين الخطّين العباسيين المتنازعين: الخط العباسي التقليدي، والخطّ العباسي المأموني، فالأول يحاول ثَنيَ المأمون عن قراره بأنّ محمد بن علي عليه السلام لم يزل غير مؤهّل للمسؤولية الخطيرة التي يتطلّع إليها المأمون؛ لصغر سنّ (محمد) هذا، وهو بحاجة إلى أن يتلقّى العلم والفقه على يد مؤدَّبين يخصصهم المأمون له، في حين يحاول المأمون إثبات خلاف هذه النظرة الساذجة التي تنمّ عن معرفة سطحية بأحوال محمد بن علي عليه السلام، في حين تكشف توجّهات المأمون عن معرفة جديرة بمقام الإمام ومقتضيات الإمامة، وأنّ أهل هذا البيت لا يقاسون بأحد، فهم أهل العلم، وخزنة الأسرار الإلهية (فقد اخترته لإبرازه على كافة أهل الفضل في العلم والفضل، مع صغر سنّه والأُعجوبة فيه بذلك)[1].

وهذه النظرة المتفائلة لدى المأمون في إمكانية (محمد عليه السلام) وأهليّته لمهمّة أبيه تنبع عن قناعات المأمون في حيثيات هذا البيت العلوي، وتقدّمه في كلّ الأُمور، وصلاحيته للخلافة دون غيرهم، وهذه النظرة التفاؤلية في توجّهات المأمون لأهل هذا البيت العلوي تُجيب عن تساؤلاتٍ عدّةٍ في سبب تعاطيه مع آل عليٍّ عليهم السلام متجاوزاً تقليدية العداء بين العباسيين والعلويين.

(١) كشف الغمة: ٢/٨٦٧.

القراءة الرابعة:

يمثّل فقه يحيى بن أكثم بأنّه الفقه المقابل لمدرسة أهل البيت عليهم السلام أو الفقه الرسمي الذي تتعاطى معه الدولة، في حين يُعدّ فقه أهل البيت عليهم السلام هو الفقه المطارد، وفي جولة المناظرة التي أقامها المأمون بطلب من العباسيين، ظَهَرَ مستوى هذا الفقه مقابل تدنّي مؤهّلات أصحابه، فهو مهزوم أمام مناظره الآخر (فقه عليّ عليه السلام)، الذي مثّله محمد بن علي الجواد عليه السلام، وهو الشعور الكامن في دواخل المأمون، بل العامة كذلك، إلاّ أنّ الغلبة السياسية تلعب دورها في الترهيب الثقافي، وتوجّهات المدارس الفكرية المناوئة لأهل البيت عليهم السلام تُعطي انطباعاً عاماً عن الفقه الرسمي بأنّه هو الفقه الذي يمثّل التيار العام، فكانت جولة المناظرة هذه امتحاناً لأهلية هذا الفقه، وكانت خسارة بن أكثم في المناظرة انعكاساً لمدى صلاحية هذا الفقه الذي مثّله، بخلاف العمق والموضوعية التي تجلّت على طروحات محمد بن علي الفقهية.

ولم يكتفِ المأمون بالهزيمة التي لحقت بيحيى بن أكثم جرّاء هذه المناظرة، بل زاد على ذلك بأن طلب من الإمام الجواد عليه السلام أن يسأل يحيى ليؤكّد هزيمة العباسيين في هذه الجولة، وانتصار الجانب الذي كان يلتزمه المأمون، وهو الطرف التقليدي المعارض للعباسيين، ولمّا لم يستطع ابن أكثم الإجابة على مسألة الإمام أعلن المأمون انتصاره على خصومه العباسيين، فأقبل على توبيخهم وتأنيبهم لموقفهم المتشدِّد ضدّ آل البيت عليهم السلام.

(فأقبل المأمون على من حضره من أهل بيته فقال لهم: هل فيكم من يجيب هذه المسألة بمثل هذا الجواب، او يعرف القول فيما تقدم من السؤال؟ قالوا: لا والله، إنّ أميرَ المؤمنين أعلم وما رأى.

فقال: ويحكم، إنّ أهل هذا البيت خُصُّوا من الخلق بما ترون من الفضل،

وإنّ صِغَر السنَ فيهم لا يمنعهم من الكمال. أما علمتم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وهو ابن عشر سنين، وقَبِل منه الإسلام وحكم له به، ولم يدعُ أحداً في سنّه غيره، وبايع الحسن والحسين عليهما السلام وهما ابنان دون الستّ سنين، ولم يبايع صبيّاً غيرهما؟! أوَلا تعلمون ما اختصّ الله به هؤلاء القوم، وإنّهم ذرّيّة بعضها من بعض، يجري لآخرهم ما يجري لأولهم؟!

فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين، ثم نهض القوم)(١).

كان هذا التنظير الذي قدّمه المأمون أُطروحةً لمشروعه ومسوّغات لإجراءاته التي وقف حيالها العباسيون موقف الناقم والمعارض، ولم يُبدِ العباسيون أي اعتراض في هذا الشأن؛ وذلك لِمَا للمأمون من حُجَج أفحمت معارضيه، وأوقفتْ حملات السخط الذي بدأ، تعاطي العباسيين مع المأمون كونهُ خارجاً على نظامهم التقليدي في العداء لآل عليٍّ عليهم السلام وشيعتهم.

القراءة الخامسة:

تُعدُّ هذه المناظرة وأمثالها من المناظرات الأُخرى مؤشّراً مهمّاً على تقدّم المعرضة العلوية في سبيل انجاز وتحقيق مهامها على الصعيد العام، فالمحاولات العباسية في إخفاء معالم مدرسة آل البيت عليهم السلام سعت إليها كافّة الأطراف السياسية والعقائدية المناوئة لهم، وكانت السلطة العباسية تُسيِّر دفّة هذه المحاولات لتساهم في طمس معالم المدرسة العلوية وتصنيفها في خانة المعارضة المطاردة، والأُطروحة المحظورة، إلاّ أنّ حالةً من الانفراج الإعلامي بدت معالمها واضحة بعد أن أُزيلت بعض القيود العباسية على أُطروحة آل البيت عليهم السلام، والتي تمنع من انتشارها او تدوالها لتطّلع الأُمّة على أحقّيّة هذا الفكر الناضج والتوجّه الرشيد.

(١) كشف الغمة: ٢/٨٦٩-٨٧٠.

القراءة السادسة:

إنّ التقدم الحاصل في مسيرة المدرسة العلوية سيُؤجِّج مشاعر العباسيين ويثير توجّسات أولئك السائرين في فلكهم السياسي من القضاة والفقهاء، الذين شعروا بهزيمة واضحة وخسارة لا يمكن الاعتذار عنها أحبطت معها مشاريع هؤلاء؛ ممّا دعاهم إلى التفكير بكل جدّية في التخلّص من الإمام الجواد عليه السلام، كما كانت محاولات ابن أبي داود في التآمر عليه، وهو القاضي الذي هزم أمام المعتصم في مسألة فقهية أبدى اجتهاده فيها وخالفه محمد بن علي في الرأي فكان المعتصم مذعناً لأدلة (محمد) والأخذ بها وتجاهل آراء فقهاء البلاط، فكانت تلك الحزازة دافعةً لهؤلاء في التخلّص من (محمد بن علي)، الذي هيمنت مدرسته على مدارس فقهاء البلاط، وغدت هذه المدارس تتراجع أمام تقدّم مدرسة العلويين الفقهية، التي كانت يوماً ما محظورة على الصعيد الرسمي، وهو أمر أرّق هؤلاء الفقهاء، حتى نفذوا في محمد بن علي مؤامراتهم التي حقّقها المعتصم بعد ذلك.

فقهاء نظريات الاعتذار

ولم تَحدّ مضايقات فقهاء البلاط من نشاط محمد بن علي الجواد عليه السلام، فقد شمخ في عطائه شموخ الأوائل، دون أن تراوده فكرة الإحباط رغم ما يعانيه من مؤامرات أولئك المتوجّسين؛ خيفة من منافسة (محمد) لمقاماتهم الرسمية التي زعزعتها الرياح العاتية لحركة المأمون، فتقتلع معها الثوابت التي دعا إليها (محمد) ونافح من أجلها آباؤه من قبل.

كان البلاط يترصّد تحركات الإمام، وفقهاء البلاط يتربّصون به ليوقعوه في قضية ساخنة تجرّه إلى مواجهات غير محمودة، وهم يسعون لإذكاء روح العداء بين الإمام الجواد عليه السلام وبين الأُمّة التي ما فتأت تتحدّث في قابلياته ولياقته، وهي لا تخفي إعجابها به، فإنّه امتداد لسلالة النبوة، ومستودع العلوم، وكان إعجاب الأُمّة بحفيد النبي صلى الله عليه وآله يُؤَصِّل نظرية السماء في خلافة الله على الأرض، وليس الفقهاء بغافلين عن ذلك الذي تستشعره الأُمّة في حفيد محمد صلى الله عليه وآله، ولا تخفى عليها مناورات التآمر حينما تريد أن توقع ما يثير الأُمّة ويستفزّها من مطارحات عقائدية تُؤجِّج شحناء العامة وتُقدّمها مادةً للفرقة والاحتراب.

ولم يَغبِ عن الجواد محمد أنه عليه السلام صاحب رسالة ورثها عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله، فهو اليوم يؤسِّس لنظرية أسلافه، كما هو يُؤصِّل ويُقَنّن، فخلاف الخلافة بات يؤرّق الأمّة حيثما لم تهتدِ في ظِلّ رؤى النظام والتأريخ المسيَّس وقتذاك، ولا بد ليحيى بن أكثم المنهزم بالأمس أن يوقع بمحمد بن علي الذي كشف عَواره وأظهر للناس سذاجة ما يحمله يحيى من علم أغدق عليه النظام لقب (قاضي القضاة) فهو اليوم يثأر لكرامته المهدورة وشخصيته الممتهنة بالأمس، فبادر في اليوم الثاني أن يسأل يحيى هذا السؤال للإمام محمد عليه السلام:

قال يحيى بن اكثم: ما تقول يا بن رسول الله في الخبر الذي روي: أنّه نزل

جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا محمد، إنّ الله عزّ وجلّ يقرؤك السلام ويقول لك: سَل أبا بكر هل هو عنّي راضٍ فإنّي عنه راضٍ؟![1]

فقال أبو جعفر عليه السلام: (لست بمنكر فضل أبي بكر، ولكن يجب على صاحب هذا الخبر أن يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: قد كثرت عليَّ الكذَّابة وستكثر بعدي، فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث عنِّي فأعرِضوه على كتاب الله وسنّتي، فما وافق كتاب الله وسنّتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنّتي فلا تأخذوا به، وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[2]. فالله عزّ وجلّ خفي عليه رضا أبي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سرِّه؟! هذا مستحيل في العقول!).

ثم قال يحيى بن أكثم: وقد روي: (أنّ مَثَلَ أبي بكرٍ وعمرَ في الأرض كَمَثَلِ جبرائيل وميكائيل في السماء).

فقال عليه السلام: (وهذا أيضاً يجب أن ينظر فيه؛ لأن جبرائيل وميكائيل ملكان لله مقرّبان لم يعصيا الله قطّ، ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة، وهما قد أشركا بالله عزّ وجلّ وإن أسلما بعد الشرك، فكان أكثر أيّامهما الشرك بالله، فمحال أن يُشبِّههما بهما).

قال يحيى: وقد روي أيضاً: (أنّهما سيدا كهول أهل الجنة). فما تقول فيه؟

(١) ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه هكذا عن ابن عمر، قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وعنده أبو بكر الصديق، عليه عباءة قد خلّها على صدره بخلال، فنزل عليه جبريل فقال: مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها على صدره بخلال؟ قال: أنفق ماله عليَّ قبل الفتح. قال: فأقرئه عن الله السلام وقل له: يقول لك ربّك: يا أبا بكر، أراضٍ أنت عنّي في فقرك هذا أم ساخط؟ قال: فالتفت النبي صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر، فقال: يا أبا بكر هذا جبريل يُقرئك عن الله السلام ويقول لك: أراضٍ عنّي في فقرك هذا أم ساخط؟ قال: فبكى أبو بكر، وقال: أعلى ربِّي أسخط؟! أنا عن ربِّي راضٍ، أنا عن ربِّي راضٍ، أنا عن ربِّي راضٍ. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٦/٢، والعجيب انّ الخطيب سكت عمّا رواه ممّا يدلّ على ارتضائه لهذه الأعاجيب.

(٢) ق: ١٦.

فقال عليه السلام: (وهذا الخبر محال أيضاً؛ لأنّ أهل الجنّة كلّهم يكونون شباباً ولا يكون فيهم كهل، وهذا الخبر وضعه بنو أُمية؛ لمضادّة الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في الحسن والحسين عليهما السلام بأنّهما سيّدا شباب أهلِ الجنَّة).

فقال يحيى بن أكثم: وروي: (أنّ عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة).

فقال صلى الله عليه وآله: (وهذا أيضاً محال؛ لأنّ في الجنة ملائكة الله المقرّبين، وآدم ومحمد، وجميع الأنبياء والمرسلين لا تضيء الجنة بأنوارهم حتى تضيء بنور عمر؟!)).

فقال يحيى: روي: (أنّ السكينة تنطق على لسان عمر).

فقال عليه السلام: (لست بمنكر فضل عمر، ولكنّ أبا بكر أفضل من عمر، فقال على رأس المنبر: إنّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا مِلتُ فسدِّدوني).

فقال يحيى: قد روي: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: (لو لم أُبعث لبُعِث عمر).

فقال عليه السلام: (كتاب الله أصدق من هذا الحديث، يقول الله في كتابه، ﴿وَإِذْ أَخَذنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُّوحٍ﴾[1] فقد أخذ الله ميثاق النبيين فكيف يمكن أن يبدِّل ميثاقه؟! وكل الأنبياء صلى الله عليهم وآله لم يُشركوا بالله طرفة عين فكيف يبعث بالنبوة من أشرك وكان أكثر أيامه مع الشرك بالله؟! وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نُبِّئتُ وآدم بين الرُّوح والجسد).

فقال يحيى بن أكثم: وقد روي أيضاً: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: (ما احتبس عنّي الوحي قطّ إلاّ ظننتهُ قد نزل على آل الخطّاب).

فقال عليه السلام: (وهذا محال أيضاً؛ لأنّه لا يجوز أن يشكّ النبي صلى الله عليه وآله في نبوته، قال الله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[2]، فكيف يمكن

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) الحج: ٧٥.

أن تنتقل النبوة ممن اصطفاه تعالى إلى من أشرك به؟!).

قال يحيى: روي أن النبيّ ﷺ قال: (لو نزل العذاب لَما نَجا منه إلاّ عمر).

فقال عليه السلام: (وهذا محال أيضاً؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغفِرُون﴾[1]، فأخبر سبحانه أنّه لا يعذّب أحداً ما دام فيهم رسول الله ﷺ وما داموا يستغفرون)[2].

ولم يكن يحيى قد ألقى على الإمام الجواد عليه السلام هذه الأسئلة لمجرد كونها أسئلة نقلها يحيى عن الرواة ليقف على الصحيح منها، بقدر ما هي محاولات استدراج استفزّ بها أبا جعفر أمام المأمون، وأهل الحلِّ والعقد من أصحاب القرار في الدولة العباسية يحضرون هذا الحوار... ولم يكن بوسع الإمام السكوت عن كلّ ما طرحه يحيى، فالإمام في طور التأسيس لمبتنيات أفقدتها السياسة حضورها، وهمّشت توجّهاتها في خضمّ صراع سياسيٍّ تقليدي ألغى معها جميع الثوابت عند ذاك، وكان يحيى في موقع التنظيرٍ لنظرية الخلافة والتأصيل لتداعيات السقيفة حينما قدمت رجالاتها، دون أن يجد المسلمون أيَّ فَضلٍ لأصحابها، وكأنّ نظرية السقيفة حوصرت من قبل معارضة أهل البيت الصامتةً، إلاّ أنّها كانت ناطقةً بفضل أصحابها ومقامات أهلها، وكانت تُدين أولئك الذين تدافعوا على مقام الخلافة بمحاولات الغلبة السياسية ومناوراتها.. ولم يجدأتباعها بعد ذلك مندوحة من السكوت أو الغضّ عن كلّ ما يلمزه المتسائلون عن حقيقة الاستحقاق الذي دعا أهل السقيفة إلى ترشيح أنفسهم، ودفع الآخرين بقوة السيف عن كلّ معارضة تُطيح بمشروعهم هذا.

ووجد هؤلاء الأتباع أنّهم تحت طائلة التساؤل الحثيث في تقديم رؤية عن

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) الاحتجاج للطرسي: ٢/٤٧٧-٤٨٠، ح٣٢٣، وعنه البحار: ٨٠/٥٠، ح٦.

قابليات أصحاب السقيفة، الذين أغلقوا الطريق على كلّ أحدٍ للوصول إلى منصب الخلافة.. فهم الآن مطالبون بوضع ملامح الصورة الجديدة لأصحاب السقيفة، ووضع رتوش التجميل حتى على حساب المبادئ.. وهم اليوم أحوج إلى ذلك من أي وقت كان بعد أن صار للمعارضة العلوية حضورها..

إذن فليكن يحيى غير يحيى من أصحاب نظرية السقيفة أن يبرمجوا نظريتهم حديثياً، أي محاولة استيعاب الحديث النبوي لنظرية السقيفة على أساس لون من ألوان الفضائل؛ وليجدوا الحديث الآن حاضراً في قولبة نظرية السقيفة وحضورها ضمن مخطّطات رواة الحديث، وقصارى ما تجيب المعارضة العلوية في نظر هؤلاء: أنّ هذه الأحاديث موضوعة، وأقصر الطرق لردّ المنكرين لهذه الأحاديث بأنّ هؤلاء لم يستطيعوا استيعاب هذه الفضائل حسداً منهم لأهل الشأن من السقيفيين الأوائل، وأهل السلف من الأصحاب، وبذلك فستكون في نظر يحيى وفريقه أجوبة المعارضة واهية لا تنفع شيئاً..

وفي غمرة هذه التمنّيات التي توقّعها هؤلاء تفاجؤهم أجوبة الإمام الجواد بقرآنية الأدلّة وسنن النبيّ صلى الله عليه وآله التي يتفق عليها الفريقان، أي كان للقرآن حضوره، وصار الإمام يحاكم هذه النصوص بآيات الكتاب، ولم تجد ليحيى بعد ذلك أية مشاركة على صعيد الدفاع عن مبتنياته التي صاغها على أساس الحديث النبوي فهو مجرد متلق لصناعات الإجابة بكل تسليم دون أن يقوى على ردّها أو إنكارها على الأقل، ممّا سجل هذا الحوار سبباً في دفع نظرية الإمامة إلى تقدم واسع شهده المأمون وسمعه الآخرون، ولعلّ هذا الانتصار الرائع من مقتضيات نشر عقيدة آل البيت عليهم السلام في الأوساط السياسية المتشنّجة ضدّهم، وفي الوقت نفسه كان هذا الانتصار داعياً كذلك للتآمر على حياة الإمام من قبل فقهاء الاغتيالات (الإسلامية)، أي التصفيات الجسدية للمعارضة وهي ترتدي لباسها الديني الفتوائي.

الجواد ووراثة التوحيد.. دفاع عن الوحدانية الحقة

ولم يكتفِ (محمد عليه السلام) في دفاعه عن مبدأ الإمامة ما لم يكن مطعّماً بمبدأ التوحيد، فالتشبيه والتجسيم صنمية الثقافة العباسية المستوردة من خلف الأسوار الإسلامية، تنتفض اليوم بعد أن دعاها معاوية بن أبي سفيان برجالاتها المنظِّرين: كعب الأحبار وأبو هريرة وأمثالهما؛ لإيجاد صيغ جاهزة تحرف المسيرة التوحيدية عن اتجاهها المحمدي الذي أرسى قواعده إبّان دعوتهُ، وتتراجع هذه التنظيرات التجسيمية بعد تصدّي أهل البيت عليهم السلام خصوصاً، وعصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام يسمحان للتحرك بهذا الاتجاه، إلاّ أنّ عصر المزاوجة الثقافية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي دعا المأمون أن يتسامح في إذكاء روح الثقافة التجسيمية من جديد، ولم يكن بوسع أئمة أهل البيت عليهم السلام إلاّ أن يتصدَّوا لمثل هذه التيارات وإيقاف عتوِّها المقتلع لثواب التوحيد.

وكان الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قد تمتّع بفرصة الحوار مع أولئك المجسِّمة من المسلمين والديانات الأُخرى: يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها، فاغتنم فرصة المحاورات الرسمية التي عقدها المأمون لإظهار فضل الإمام الرضا عليه السلام ومقامه العلمي، وتصويب رأيه في اختياره الموفق للإمام ولياً للعهد، واليوم خليفته الجواد يعتلي منصّة الحوار، ويلقي من نظريات التوحيد ما توقّف معها انتهاكات أُولئك المجسِّمة وأمثالهم.

ففي جوابه لمن سأله عن الرب تعالى: أَلَهُ أسماء وصفات في كتابه؟ وهل أسماؤه وصفاته هي هو؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: (إنّ لهذا الكلام وجهين: إن كنت تقول: (هي هو) أنّه ذو عدد وكثرة فتعالى الله عن ذلك، وإن كنت تقول: (هذه الأسماء والصفات لم تزل) فإنّ ممّا لم تزل محتمل على معنيين:

فإن قلت: لم تزل عنده في علمه وهو يستحقها فنعم، وإن كنت تقول: لم تزل صورها وهجاؤها وتقطيع حروفها فمعاذ الله أن يكون معه شيء غيره، بل كان الله تعالى ذكره ولا خلق، ثم خلقها وسيلة بينه وبين خلقه، يتضرعون بها إليه ويعبدون، وهي ذكره وكان الله سبحانه ولا ذكر، والمذكور بالذكر هو الله القديم الذي لم يزل، والأسماء والصفات مخلوقات، والمعنيّ بها هو الله، لا يليق به الاختلاف والا الائتلاف، وإنّما يختلف ويتألّف المتجزّئ، ولا يقال له: قليل ولا كثير، ولكنّه القديم في ذاته؛ لأنَّ ما سوى الواحد متجزّئ، والله واحد لا متجزّئ ولا متوهّم بالقلّة والكثرة، وكل متجزّئٍ أو متوهّم بالقلة والكثرة فهو مخلوق دالّ على خالق له، فقولك: (إن الله قدير) خبّرت أنه لا يجزه شيء، فنفيت بالكلمة العجز، وجعلت العجز لسواه، وكذلك قولك: (عالم) إنّما نفيت بالكلمة الجهل وجعلت الجهل لسواه، فإذا أفنى الله الأشياء أفنى الصورة والهجاء والتقطيع فلا يزال من لم يزل عالماً).

فقال الرجل: فكيف سمّينا ربّنا سميعاً؟

فقال عليه السلام: (لأنّه لا يخفى عليه ما يُدرَكُ بالأسماع، ولم نَصِفه بالسمع المعقول في الرأس، وكذلك سمّيناه بصيراً لأنّه لا يخفى عليه ما يُدرَك بالأبصار من لون أو شخص أو غير ذلك، ولم نصفه ببصر طرفة العين، وكذلك سمّيناه لطيفاً لعلمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وما هو أخفى من ذلك، وموضع المشي منها والشهود والسفاد، والحدب على أولادها، وإقامة بعضها على بعض، ونقلها الطعام والشراب إلى أولادها في الجبال والمغاور والأودية والقفار، وعلمنا بذلك أنّ خالقها لطيف بلا كيف، إذ الكيف للمخلوق المكيَّف.

وكذلك سمّينا ربّنا قوياً بلا قوة البطش المعروف من الخلق ولو كانت قوته قوة البطش المعروف من الخلق لوقع التشبيه واحتمل الزيادة، وما احتمل الزيادة احتمل النقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم، وما كان غير قديم كان عاجزاً، فربنا تبارك وتعالى لا شبه له، ولا ضدّ ولا ندّ، ولا كيفية، ولا نهاية، ولا تصاريف،

محرّم على القلوب أن تحمله، وعلى الأوهام أن تحدّه، وعلى الضمائر أن تصوّره، جلّ وعزّ عن أداة خلقه، وسمات بريّته، تعالى عن ذلك علواً كبيراً)[١].

وفي رواية داود بن القاسم الجعفري قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[٢] ما معنى الأحد؟

قال: (المجمع عليه بالوحدانية، أما سمعته يقول: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[٣] ثم يقولون بعد ذلك: له شريك وصاحبة).

فقلت: قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[٤]؟

قال: (يا أبا هاشم، أوهام القلوب أدقّ من إبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السِند والهند والبلدان التي لم تدخلها، ولم تدرك ببصرك ذلك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف تدركه الأبصار)[٥].

وفي حديث بن أبي نجران قال: سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام عن التوحيد، فقلت: أتوهم شيئاً؟

فقال: (نعم، غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل وخلاف ما يتصور في الأوهام؟ إنّما يتوهّم شيء غير معقول ولا محدود)[٦].

(١) الاحتجاج للطبرسي: ٢/٤٦٧، ح٣٢١- عنه البحار: ٤/١٥٣، ح١.
(٢) الاخلاص: ١.
(٣) العنكبوت: ٦١.
(٤) الأنعام: ١٠٣.
(٥) الاحتجاج: ٢/٤٦٥، عنه البحار: ٤/٣٩، ح١٧.
(٦) التوحيد: ص١٠٣، ح٦، عنه البحار: ٣/٢٦٦، ح٢٢.

وسئل عليه السلام: أيجوز أن يقال لله: إنّه شيء؟

فقال عليه السلام: (نعم، تخرجه من الحدّين: حدّ الإبطال، وحدّ التشبيه)[١].

في واقع إسلامي أغرقته نظريات المتفلسفين القادمة ضمن حملات الترجمة التي بدأها في جلب الكثير من كتابات الروم الفلسفية، وتوجّهات الهند القصصية، ومساعي الفرس الأدبية، فضلاً عن ثقافات أهل الصين، ومحاولات الترك، ونزعات البربر، وفنون اليونان، وغيرها من تجسيمات اليهود، وتثليث النصارى، واختلافات أهل الملّة، كل ذلك أربكت عقلية الفرد وأودت بالجماعة الإسلامية إلى تقمّصات هذه الثقافات الجديدة غير الواعية في معرفة صفات الله، فخلطت بين صفات الذات وصفات الفعل، وأثبتت من صفات التنزيه ما كان ينبغي أن تجلّ عنه الذات وتوصف به أفعاله تعالى، وأنزلق المجتمع الإسلامي إلى مهاوي التشبيه ومحاولات الإلحاد حتى كان للإمام الجواد وقبله والده الإمام الرضا عليهما السلام الأثر في صدّ عادية هذه التيارات الفكرية المنحرفة.. وأنت ترى ما لهذه الأُسس التوحيدية في كلام الإمام الجواد من أثر في انتشال المدرسة الإسلامية من مخاطر الانحراف الفكري القادم.

(١) التوحيد: ص١٠٤، ح٧، عنه البحار: ٣/٢٦٠، ح٢٩، الاحتجاج: ٢/٤٦٦، ح٣٢٠.

ما منّا إلاّ قائم بأمر الله

مع تزايد الاهتمام في قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه من لدن المجتمع الإسلامي؛ وذلك بسبب تصاعد وتيرة الظلم واستشراء الفساد، دفع الناس إلى أن تتوجّه أنظارهم للمنقذ الموعود، وتمنّى هؤلاء أن يرتفع ما يعانيه المجتمع من ظلم وفوضى في المفاهيم الإسلامية بظهور من يعيد للأُمّة شخصيتها الإسلامية المفقودة، وتوسّل أولئك المحيطون بالأئمة من أهل البيت عليهم السلام أن يكون صاحبهم هو القائم الموعود، والإمام الجواد أحد أولئك المؤمّل فيهم القيام بأمر الله، إلاّ أنّ الإمام الجواد يحاول أن يبعد هذه الفكرة، ويقرّب صفات القائم عجل الله فرجه إلى أذهان الناس، بقوله لعبد العظيم الحسني رضي الله عنه حين سأله عن القائم، حيث قال:

قلت لمحمد بن علي بن موسى عليهم السلام: يا مولاي، إنّي لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

فقال عليه السلام: (ما منّا إلاّ قائم بأمر الله، وهادٍ إلى دين الله، ولكنّ القائم الذي يطهِّر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً هو الذي تخفى على الناس ولادته، ويغيب عنهم شخصه، وتحرم عليهم تسميته، وهو سَمِيّ رسول الله وكنيه، وهو الذي تُطوى له الأرض، ويُذلّ له كل صعب، يجتمع إليه من أصحابه عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض؛ وذلك قول الله: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، فإذا اجتمعت له هذه العدة من أهل الإخلاص أظهر الله أمره، فإذا كمل له العقد وهو عشر آلاف رجل خرج بإذن الله، فلا يزال يقتل أعداء الله حتى يرضى عزّ وجلّ).

---

(١) البقرة: ١٤٨.

قال عبد العظيم: فقلت له: يا سيدي، فكيف يعلم أنّ الله قد رضي؟

قال: (يُلقِي في قلبه الرحمة، فإذا دخل المدينة أخرج اللات والعزّى فأحرقهما)[1].

ولم يكن عبد العظيم قد اختلط عليه أمر قائمهم عليهم السلام، فهو الحامل لأحاديثهم، والحافظ لتراثهم، والقيِّم على رواياتهم إبّان اشتداد الأمر على شيعتهم، وملاحقتهم إيّاهم، فكان عبد العظيم الحسني مهاجراً إلى حيث حفظ نفسه الشريفة وتراث أئمته المقدس، حرصاً منه على إيصال هذا الكمِّ الهائل من تراثهم إلى أجيال شيعتهم، وهو الملازم لهم عليهم السلام في أحلك الظروف، فكيف يغيب عن عبد العظيم مسألة القائم وتشخيصه حتى يختلط عليه الأمر فيسأل الجواد عليه السلام عن كونه القائم أم لا؟

وعلى ما يبدو أنّ عبد العظيم أراد أن يسأل الإمام الجواد عليه السلام عن القائم ليبعد شبهة الضعفاء الذين يتوسّلون بأيّ شخصية يجدون فيها مواصفات خاصة يقتنعون بها، فيجعلون صاحبها مؤهلاً لأن يكون المهدي، وقد انخرط في شبهة المهدوية الكثير، حيث نسبوها إلى بعض الأئمة عليهم السلام، كالإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وبعض أبناء الأئمة كذلك، والظاهر أن ضيق الظروف الأمنية والاختناق السياسي الذي تفرضه السلطة تدفع بالبعض إلى اضطراب العقيدة المهدوية لديهم، فيأملون أن يكون الإمام الحاضر هو قائم آل البيت عليهم السلام، وهو ما دعا عبد العظيم الحسني أن يثير هذا التساؤل الخطير، وقد أضاف عبد العظيم بسؤاله هذا للإمام تراثاً مهدوياً مهمّاً، ورؤيةً ناضجة معصومة؛ كي تعرف الأُمّة في ظلّ هذه الظروف إمامها وواقعه الذي يحيط به.

(١) الاحتجاج: ٤٨١/٢، ح٣٢٤، إكمال الدين: ٣٧٧/٢، ح٢، ب٣٦، عنه البحار: ٢٨٣/٥٢، ح١٠.

الإمام الجواد.. راوية الحديث المحظور

لـــم يزل حديث عليٍّ عليه السلام محاصراً يعاني من الحظر الرســـمي الذي لا يجوز معـــه في عرف السياســـة أن تبقى آثاره كمعارضة شـــاخصة تدين النظام القائم، وتُحرِّض الأُمّة أن تقرأ واقعها على أساس معطيات الإسلام الأصيل، ولم يزل رواته يحفظونه في صدورهم، ويكتمونه خشية الملاحقة والقتل والتنكيل، وهو مع هذا كله يخترق حواجز الممنوع وحجب المحظور، وسياسات الأنظمة لا تقوى على قهر إرادة الأُمّة في حقها للوقوف على المعرفة الحقيقية حينما تجدها في منابعها الروائية، فالحظر لم يرهب الحديث النبوي يوم كان محظوراً عليه ومحجوراً على رواتـــه، وهو لا يوقف رغبة الأُمّة في ســـماعها الحديث، ولا يلغي دور رواته في مناقلته والعمل على ضوئه، ولم يجد الحديث متنفّساً بعيد رحيل نبيه صلى الله عليه وآله، حتى مـــرّ بفترات الحظر والمطاردة والقهر، بل وحتى التحريف يوم كان معاوية بن أبي سفيان متوثباً ليلفّق أحاديث موضوعة تحطّ من مناقب أعدائه وفضائلهم وكل ما ورد في علي وآل علي عليهم السلام، وتُحدث ما ينافي ذلك لتنسج الفضائل على لسان النبي صلى الله عليه وآله في شـــخص معاوية وآل أبي ســـفيان، وفيما ذكرناه في بحوث تاريخ الحديث النبوي بين ســـلطة النصّ ونصّ الســـلطة غنىً عن كل مجريات معاناة الحديث وحملته ورواته.

فـــي ظلّ هـــذا الصراع المحتدم بين الحديث النبوي وبين الســـلطة صراع بكل حيثياتـــه ودقائقه وتوجّهاته، بل صراع بين مفاهيـــم الحديث وقيمه، وبين دواعي الســـلطة وطموحها في الاســـتحكام على مناشـــئ الحديث ورواته؛ لتغلق منافذ الطريـــق على القيم الأصيلة التي يحملها الحديـــث النبوي، أضف إلى ذلك أنّ الحديـــث النبوي بمثابة الرقيب على الحاكم ونظامه، فهو إذن حالة من حالات العرقلة لتحركات النظام باتجاهاته الخاصة البعيدة عن الشريعة والتزاماتها، وبذلك ســـيعيش النظام مذعوراً من الحديث، تطارده هواجسه التي ما فتِئت تُدين النظام ورجالاته، من هنا تعرف مدى الهوّة الســـاحقة بين الحديث النبوي كمفهوم وبين

السلطة كتوجّهات وطموحات جامحة، ومثل هذا الوضع الحذر الذي يعيشه النظام من حيث لا يسمح بعد ذلك لرواته أن يؤسّسوا مدرستهم الروائية على أساس مبتنيات سليمة، ومعنى ذلك أنّ الحديث الملاحق يبقى محاصراً، إلاّ أنّه يجد متنفّساً أحياناً ليبيح به حملته إلى أسماع الثقات.

وإذا كان النظام قد أذن أن تتخذ ثقافة أهل البيت عليهم السلام متّسعاً من الحركة إبّان المأمون العباسي الذي أسّس نظرية إمكانية التعايش مع العلويين ودعا إلى سياسة التسامح والحوار، فإنّ الإمام محمد الجواد عليه السلام سيكون في طليعة أولئك المعنيين بهذه النظرية المأمونية التي من خلالها أشرف الحديث النبوي من نافذة الإمامة على ثقافة الأُمّة وتوجّهاتها، وكان الإمام الجواد عليه السلام حاضراً في تمتين العلاقة بين الأمّة وبين الحديث النبوي؛ لذا سيجد الحديث متنفّساً يتجه بامتداداته إلى قطّاعات الأُمة بكل ألوانها؛ لذا فإنّ الإمام عليه السلام قدّم نماذج المعرفة على أساس صيغ الحديث النبوي، أو الحديث العلوي المضمّخ بدماء آل علي منذ عقود حتى يصل معافىً دون أن تمسّه يد الوضع والتحريف.

فقد روى عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام، قال: (بعثني النبي صلى الله عليه وآله إلى اليمن فقال لي وهو يوصيني: يا علي، ما حارَ من استخار، ولا ندم من استشار. يا علي عليك بالدلجة (أي السير بالليل) فإنّ الأرض تُطوى في الليل ما لا تطوى بالنهار. يا علي، اغدُ باسم الله فإنّ الله بارك لأُمّتي في بكورها)[(١)].

وقال عليه السلام: (من استفاد أخاً في الله فقد استفاد بيتاً في الجنة)[(٢)].

وعنه عليه السلام وقد سئل عن حديث النبي صلى الله عليه وآله: (أنّ فاطمة أحصنت فرجها فحرّم الله ذريتها على النار؟ فقال: خاصّ للحسن والحسين)[(٣)].

(١) أمالي الطوسي: ص١٣٦، ح٣٣، كشف الغمة: ٢/٨٥٩.

(٢) أمالي الطوسي: ص٨٤، ح٣٣.

(٣) أعيان الشيعة: ٢/٣٥.

وعنهُ، عن عليٍّ عليه السلام: (في كتاب علي بنِ أبي طالب عليه السلام: (أنّ ابن آدم أشبه شيء بالمعيار، إمّا راجح بعلم -وقال مرّةً بعقل- أو ناقص بجهل)[1].

وعنه: قال عليّ عليه السلام لأبِي ذرّ رضي الله عنه: (إنّما غضبت لله عزّ وجلّ، فارجُ من غضبت له، إنّ القوم خافوكَ على دنياهم وخِفتَهم على دينك، والله لو كانت السماوات والأرضون رتقاً على عبد ثم اتقى الله لجعل الله له منها مخرجاً، لا يؤنسنك إلاّ الحق، ولا يوحشنك إلاّ الباطل)[2].

وعنهُ، عن عليٍّ عليه السلام أنّه قال لقيس بن سعد وقد قدم عليه من مصر: (يا قيس إنّ للمحن غايات لابد أن يُنتهى إليها، فيجب على العاقل أن ينام لها إلى إدبارها، فإنّ مكايدتها بالحيلة عند إقبالها زيادة فيها)[3].

(١) أعيان الشيعة: ٢/٣٥، كشف الغمة: ٢/٨٥٩.

(٢) أعيان الشيعة: ٢/٣٥، كشف الغمة: ٢/٨٥٩.

(٣) أعيان الشيعة: ٢/٣٥، كشف الغمة: ٢/٨٥٩.

وريث النهج

وراثة علوية تأخذ بآفاق الحكمة إلى مَدَيات واسعة؛ لتفعل الخير تجسيداً لواقع مقروء، بل معاين ومشاهد، يجسِّده الإمام ليلقيه شذرات من درر أقواله في صياغة نهج جده العلوي؛ ليعيد إلى الذاكرة تلك البلاغة التي ما فتِئت ترتضع من القرآن وتغفو على عتبات الحديث النبوي والحكمة العلوية، و(محمد) هذا هو الإمام، هو إمام الكلام، لا يُدانيه أحد في عصره كما كان آباؤه عليهم السلام من قبل، وقد ألقى في مجالسه هذه الشذرات التي ما قرأتها إلاّ وتخيّلت أنّي أقرأ في نهج البلاغة، وهو دليل الوراثة النبوية والسلالة العلوية المباركة.

وبهذا فسنقرأ العطاء الثرّ الذي خلقه محمد الجواد لأُمّة جدّه، بل للإنسانية جمعاء.

وروي عنه عليه السلام قال: (من وثق بالله أراه السرور، ومن توكّل عليه كفاه الأمور، والثقة بالله حصن لا يتحصّن فيه إلاّ مؤمن أمين، والتوكّل على الله نجاة من كل سوء، وحرز من كل عدو، والدين عزّ، والعلم كنز، والصمت نور، وغاية الزهد الورع، ولا هدم للدين مثل البِدَع، ولا أفسد للرجال من الطمع، وبالراعي تصلح الرعية، وبالدعاء تصرف البلية، ومن ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر، ومن عاب عُيِّب، ومن شتم أُجيب، ومن غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى)(١).

وقال عليه السلام: (أربع خصال تعين المرء على العمل: الصحة، والغنى، والعلم، والتوفيق)(٢).

وقال عليه السلام: (إنّ لله عباداً يخصّهم بالنعم، ويقرّها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها عنهم وحوّلها إلى غيرهم)(٣).

وقال عليه السلام: (ما عظمت نعمة الله على عبد إلاّ عظمت عليه مؤنة الناس، فمن

(١) كشف الغمة: ٢/٨٦٠، أعيان الشيعة: ٢/٣٥، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٢.

(٢) كشف الغمة: ٢/٨٦٠، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٣.

(٣) المصدر السابق.

لم يحتمل تلك المؤنة فقد عرّض النعمة للزوال)[١].

وقال عليه السلام: (أهل المعروف إلى اصطناعه أحوج من أهل الحاجة إليه؛ لأنّ لهم أجره وفخره وذكره، فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنّما يبدأ فيه بنفسه، فلا يطلبنّ شكر ما صنع إلى نفسه من غيره)[٢].

وقال عليه السلام: (من أمّل إنساناً فقد هابه، ومن جهل شيئاً عابه والفرصة خلسة، ومن كثر همّه سئم جسده، والمؤمن لا يشتفي غيظه، وعنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه)[٣].

وقال عليه السلام في موضعٍ آخر: (عنوان صحيفة السعيد حسن الثناء عليه)[٤].

وقال عليه السلام: (من استغنى بالله افتقر الناس إليه، ومن اتّقى الله أحبّه الناس وإن كرهوا)[٥].

وقال عليه السلام: (عليكم بطلب العلم فإنّ طلبه فريضة، والبحث فيه نافلة، وهو صلة بين الإخوان، ودليل على المروة، وتحفة في المجالس، وصاحب في السفر، وأُنس في الغربة)[٦].

وقال عليه السلام: (العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوعاً، ومن عرف الحكمة لم يصبر على الازدياد منها، الجمال في اللسان، والكمال في العقل)[٧].

(١) كشف الغمة: ٢/٨٦٠، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كشف الغمة: ٢/٨٦٠، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٤.

(٥) كشف الغمة: ٢/٨٦٠.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

وقال عليه السلام: (العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى، والصبر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والفصاحة زينة الكلام، والعدل زينة الإيمان، والسكينة زينة العبادة، والحفظ زينة الرواية، وخفض الجناح زينة العلم، وحسن الأدب زينة العقل، وبسط الوجه زينة الحلم، والإيثار زينة الزهد، وبذل المجهود زينة النفس، وكثرة البكاء زينة الخوف، والتقلّل زينة القناعة، وترك المنِّ زينة المعروف، والخشوع زينة الصلاة، وترك ما لا يعني زينة الورع)(١).

وقال عليه السلام: (حسب المرء من كمال المروءة، وتركه ما لا يحمل به، ومن حيائه أن لا يلقى أحداً بما يكره، ومن عقله حسن رفقه، ومن أدبه أن لا يترك ما لا بدّ له منه، ومن عرفانه علمه بزمانه، ومن ورعه غضّ بصره وعفّة بطنه، ومن حسن خلقه كفّه أذاه، ومن سخائه برّه بمن يحب حقه عليه، وإخراجه حق الله من ماله، ومن إسلامه تركه ما لا يعنيه، وتجنّبه الجدال والمراء في دينه، ومن كرمه إيثاره على نفسه، ومن صبره قلة شكواه، ومن عقله إنصافه من نفسه، ومن حلمه تركه الغضب عند مخالفته، ومن إنصافه قبوله الحق إذا بان له، ومن نصحه نهيه عمّا لا يرضاه لنفسه، ومن حفظه جوارك تركه توبيخك عن إساءتك مع علمه بعيوبك، ومن رفقه ترك عذلك عند غضبك بحضرة من تكره، ومن حسن صحبته لك إسقاطه عنك مؤنة أذاك، ومن صداقته كثرة موافقته وقلة مخالفته، ومن صلاحه شدة خوفه من ذنوبه، ومن شكره معرفة إحسان من أحسن إليه، ومن تواضعه معرفته بقدره، ومن حكمته علمه بنفسه، ومن سلامته قلة حفظه لعيوب غيره وعنايته بإصلاح عيوبه)(٢).

وقال عليه السلام: (لن يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن

---

(١) كشف الغمة: ٨٦١/٢، الفصول المهمة: ١٠٥٤/٢.

(٢) كشف الغمة: ٨٦١/٢، الفصول المهمة: ج٢، ص١٠٥٤، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص٤٤، ح٩، طبع قم، والديلمي في اعلام الخاطر: ص١٢٧.

يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)[١].

وقال عليه السلام: (الفضائل أربعة أجناس: أحدها: الحكمة، وقوامها في الفكرة. والثاني: العفة، وقوامها في الشهوة. والثالث: القوة، وقوامها في الغضب. والرابع: العدل، وقوامه في اعتدال قوى النفس)[٢].

وقال عليه السلام: (العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء)[٣].

وقال عليه السلام: (يوم العدل على الظالم أشدّ من يوم الجور على المظلوم)[٤].

وقال عليه السلام: (اقصد العلماء للمحجّة الممسك عند الشبهة، والجدل يورث الرياء، ومن أخطأ وجوه المطالب خذلته الحيل، والطامع في وثاق الذل، ومن أحب البقاء فليعد للبلاء قلباً صبوراً)[٥].

وقال عليه السلام: (العلماء غرباء لكثرة الجهّال بينهم)[٦].

وقال عليه السلام: (الصبر عند المصيبة مصيبة الشامت بها)[٧].

وقال عليه السلام: (التوبة على أربع دعايم: ندم القلب، واستغفار باللسان، وعمل بالجوارح، وعزم أن لا يعود)[٨].

---

(١) كشف الغمة: ٢/٨٦١.

(٢) كشف الغمة: ٢/٨٦٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كشف الغمة: ٢/٨٦٢، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٥.

(٥) كشف الغمة: ٢/٨٦٢.

(٦) كشف الغمة: ٢/٨٦٢، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٥.

(٧) المصدر السابق.

(٨) كشف الغمة: ٢/٨٦٢.

وقال عليه السلام: (ثلاث من عمل الأبرار: إقامة الفرائض، واجتناب المحارم، واحتراس من الغفلة في الدين)[١].

وقال عليه السلام: (ثلاث يبلغن العبد رضوان الله: كثرة الاستغفار، وخفض الجانب، وكثرة الصدقة)[٢].

وقال عليه السلام: (أربع من كُنّ فيه استكمل الإيمان: من أعطى لله، ومنع في الله، وأحبّ لله، وأبغض فيه)[٣].

وقال عليه السلام: (ثلاث من كنّ فيه لم يندم: ترك العجلة، والمشورة، والتوكل عند العزم على الله عزّ وجلّ)[٤].

وقال عليه السلام: (لو سكت الجاهل ما اختلف الناس)[٥].

وقال عليه السلام: (مقتل الرجل بين لحييه، والرأي مع الأناة، وبئس الظهير الرأي الفطير)[٦].

وقال عليه السلام: (ثلاث خصال تجتلب بهنّ المحبّة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة، والانطواء والرجوع إلى قلب سليم)[٧].

وقال عليه السلام: (فساد الأخلاق بمعاشرة السفهاء، وصلاح الأخلاق بمنافسة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) كشف الغمة: ٢/٨٦٢، الفصول المهدمة: ٢/١٠٥٥.

(٣) كشف الغمة: ٢/٨٦٢.

(٤) كشف الغمة: ٢/٨٦٢، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٥.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

العقلاء، والخلق أشـــكال، فكلٌّ يعمل على شـــاكلته، والناس أخوان فمن كانت أخوّتـــه في غير ذات الله فإنّها تحوز عداوةً؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[١])[٢].

وقال عليه السلام: (من استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه)[٣].

وقال عليه السلام: (كفر النعمة داعية المقت، ومن جازاك بالشـــكر فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك)[٤].

وقال عليه السلام: (لا يفســـدك الظنّ على صديق وقد أصلحك اليقين له، ومن وعظ أخاه ســـرّاً فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه، استصلاح الأخيار بإكرامهم، والأشـــرار بتأديبهم، والمودة قرابة مســـتفادة، وكفى بالأجل حرزاً، ولا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى ثمانية عشر سنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرهما فيـــه، وما أنعم الله عزّ وجلّ علـــى عبدٍ نعمةً فعلم أنّها من الله إلاّ كتب الله جلّ اسمه له شكرها قبل أن يحمده عليها، ولا أذنب ذنباً فعلم أن الله مطّلع عليه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له إلاّ غفر الله له قبل أن يستغفره)[٥].

وقال عليه السلام: (الشـــريف كل الشريف من شرّفه علمه، والسؤدد حقّ السؤدد لمن اتقى الله ربّه، والكريم من أكرم عن ذلّ النار وجهه)[٦].

وقال عليه السلام: (من أمّل فاجراً كان أدنى عقوبته الحرمان)[٧].

---

(١) سورة الزخرف: آية ٦٧.

(٢) كشف الغمة: ٢/٨٦٣، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) كشف الغمة: ٢/٨٦٣، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٦.

(٦) كشف الغمة: ٢/٨٦٣.

(٧) كشف الغمة: ٢/٨٦٣، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٧.

وقال عليه السلام: (موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل، وحياته بالبرِّ أكثر من حياته بالعمر)[١].

وقال عليه السلام: (لا تعالجوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، ولا يطولنّ عليكم الأَمَدُ فتقسوا قلوبكم، وارحموا ضعفاءكم واطلبوا الرحمة من الله بالرحمة لهم)[٢].

قال الإربلي أبو الحسن عليّ بن عيسى: هذا ما أردت نقله من كتاب الجنابذي رضي الله عنه، وقد نقل أشـياءً رايقةً وفوائد فايقةً وآداباً نافعة، وفِقَراً ناصعة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ممّا رواه الإمام محمد الجواد بن الإمام علي بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام.

وروى الشيخ الصدوق، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني رضي الله عنه أنّه قال: قلت لأبي جعفر محمد بن عليّ الرضا عليهما السلام: يا ابن رسـول الله، حدثني بحديث عن آبائك عليهم السلام.

وقـال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدي عن آبائه عليهم السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا، إذا استوَوا هلكوا).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسـول اللـه، فقال: (حدّثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لو تكاشفتم ما تدافنتم).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقـال عليه السلام: (حدّثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّكم لن تسـعوا الناس بأموالكم، فسـعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء، فإنّي سـمعت رسـول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّكم لن تسـعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم).

(١) المصدر السابق.

(٢) كشف الغمة: ٢/٨٦٣، الفصول المهمة: ٢/١٠٥٦.

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقـــال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام : من عتب على الزمان طالت معتبته)

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقـــال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقـــال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقـــال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: قيمة كل امرئٍ ما يحسنه).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقـــال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: المرء مخبوء تحت لسانه).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما هلك امرؤٌ عرف قدره).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: التدبير قبل العمل يؤمنك الندم).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام: من وثق بالزمان صُرِعَ).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: خاطر بنفسه من استغنى برأيه).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: قلة العيال أحد اليسارين).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: من دخلهُ العُجُب هلك).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: من أيقن بالخلف جاد بالعطية).

قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام: (حدثني أبي، عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: من رضي بالعافية ممّن دونه رزق السلامة ممّن فوقه).

قال: فقلت له: حسبي[١].

وروي عنهُ قوله عليه السلام: (الثقة بالله تعالى ثمن لكلّ غالٍ، وسلّم إلى كلّ عالٍ)[٢].

وقوله عليه السلام: (عزّ المؤمن من غناه عن الناس)[٣].

وقال عليه السلام: (لا تكن وليّ الله في العلانية، عدوّاً له في السرّ)[٤].

وقال عليه السلام: (من استفاد أخاً في الله فقد استفاد بيتاً في الجنة)[٥].

وقال عليه السلام: (كيف يضيع مَن اللهُ كافله؟ وكيف ينجو مَن اللهُ طالبه؟ ومَن انقطع إلى غير الله وَكَلَه الله إليه، ومَن عمل على غير علم، ما أَفسد أكثر ممّا يصلح)[٦].

---

(١) منتهى الآمال: ٢/٥٥٥-٥٥٨ عن عيون الأخبار: ٢/٥٣، ح٢٠٤.

(٢) اعلام الدين: ص٣٠٩، البحار: ٧٥/٣٦٤، ضمن ح٥.

(٣) اعلام الدين: ص٣٠٩، عنه البحار: ٧٥/٣٦٥، ح٥، اعلام الهداية، ص٢٠٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ثواب الأعمال: ص١٨٣، ح١، البحار: ٧١/٢٧٦، ح٥، وسائل الشيعة: ١٢/٢٣٢، ح١، أمالي المفيد: ص٣١٦،ح٨.

(٦) أعلام الدين: ص٣٠٩، البحار: ٧٥/٣٦٤، ضمن ح ٥، أعلام الهداية: ص٢٣٩.

وقال عليه السلام: (إيّاك ومصاحبة الشرير فإنّه كالسيف المسلول يحسن منظره ويقبح أثره)(١).

وقال عليه السلام: (كفى بالمرء خيانةً أن يكون أميناً للخونة)(٢).

وقال له عليه السلام رجل: أوصِني.

قال عليه السلام: (وتقبل؟).

قال : نعم.

قال عليه السلام: (توسّد الصبر، واعتنق الفقر، وارفض الشهوات، وخالف الهوى، واعلم أنّك لن تخلو من عين الله، فانظر كيف تكون؟)(٣).

وقال عليه السلام: (المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال: توفيقٍ من الله، وواعظٍ من نفسه، قبولٍ ممّن ينصحه)(٤).

وقال عليه السلام: (لا تعادي أحداً حتى تعرف الذي بينه وبين الله تعالى، فإن كان محسناً فإنّه لا يسلمه إليك، وإن كان مسيئاً فإنّ علمك به يكفيكه فلا تُعادِه)(٥).

وقال عليه السلام: (القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من إتعاب الجوارح بالأعمال)(٦).

وعنه عليه السلام قال: (من أطاع هواه أعطى عدوَّه مُناه)(٧).

(١) المصدر السابق.
(٢) البحار: ٣٦٤/٧٥، ح٤، عن الدرة الباهرة، أعلام الهداية: ص٢٤٠.
(٣) تحف العقول: ص٤٥٥، عنه البحار: ٣٥٨/٧٥، ح١، أعلام الهداية: ص٢٣٨.
(٤) تحف العقول: ص٤٥٧، عنه البحار: ٣٥٨/٧٥، ح١، أعلام الهداية: ص٢٣٨.
(٥) أعلام الدين: ص٣٠٩، عنه البحار: ٣٦٥/٧٥، ضمن ح٥، أعلام الهداية: ص٢٤١.
(٦) البحار: ٣٦٤/٧٥، ضمن ح٤، عن الدرة الباهرة، أعلام الهداية: ص٢٤٠.
(٧) أعلام الدين: ص٣٠٩، عنه البحار: ٣٦٤/٧٥، ضمن ح٥، أعلام الهداية: ص٢٣٩.

الدعاء المعارض، التراتيل، المعارضة

لــم يــزل أئمة أهل البيــت عليهم السلام يعانون من مشــكلة التضييق بــل والمطاردة لطروحاتهم، ولم يزل يعاني أصحابهــم من الملاحقة وحبس الأنفاس، وإحصاء تحركاتهم التي تعدّها الأنظمة بأنّها المعارضة الأشــدّ عُنفاً في التأثير والنتائج... إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من ممارســة أنشــطتهم وبثّ روح العلم والمثابرة من أجل الوصــول إلى الحقائــق.. وإذا حُظِر على الحديث ومعارفــه فإنّ الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام لم تتوقف جهوده المعرفية، فقد صاغها على شكل أدعية تتعهّد في تقديم أُطروحة أهل البيت عليهم السلام من خلال تراتيل تنبعث في جوف الليل، أو تُلقى في جموع المحتشــدين من الناس، أو يأنس بها الإنســان عند عزلته، أو يتوسّل بها المحزون عند وحشته، أو تنفث إلى حشاشته الحَرَّى عند تعسّر حاجته..

هكــذا هي أدعية أهل البيت عليهم السلام، وهذه هي تراتيل الصحيفة الســجادية، إلاّ أنّهــا لم تكن مجردة عن هدف معرفي يســعى الأئمة إلى تعزيز مفاهيمه وإيداع معارفــه في ضمير الأُمّة، ومعنى هذا فإنّ الدعاء ســيُحال فضلاً عن كونه عبادةً يتبتّــل بها ذوو الحاجات، إلاّ أنّه خطــاب ثقافي فكري يطرحه أئمة أهل البيت عليهم السلام بعيداً عن توجّســات الدولة ومطاردة النظــام، وبهذا فقد حفظ أهل البيت عليهم السلام -بالرغم من الظرف السياسي العنيف الذي طاردهم- مفاهيمهم المحظورة ضمن أدعية وتوسّلات، فضلاً عن تنبيهات الأُمّة عمّا يحيطها من مخاطر تعمل علــى إيقاظها، والنظام في هذه الحالة غير قادر على منع هذه الأُطروحات التي تُصاغ على شــكل أدعية، ولم يشملها الحظر كما يشمل التعاطي بحديث أحد الأئمّة، والتي تعدّه الدولة ترويجاً لأُطروحاته وتبليغاً لشخصه.

والإمــام محمد بن علي الجواد عليه السلام لــم يكن بعيداً عن هذه الحالة من الطرح والتبليغ، فقد أعدّ أدعيته لتعطي رؤية في توجّهات الإمام ومفاهيم رســالته، وفي بعض نماذج أدعيته نقرأ بعض هذه الأُطروحات التي صاغها الإمام في صحيفته..

فمـــن ذلك ما صاغه من الدعاء وبيان مظلوميتـــه عليه السلام وما يعانيه من المضايقة، ومناشدة أتباعه في الوقوف عليها، وهي وثيقة تتناقلها الأجيال ليقرؤوا فيها محنة أهل البيت عليهم السلام ومظلوميتهم ومعاناتهم.

(منائِحُكَ متتابعة، وأياديك متوالية، ونعمك ســابغة، وشكرنا قصير، وحمدنا يسير، وأنت بالتعطُّف على من أعترف جدير.

اللَّهُمَّ وقد غصّ أهل الحق بالريق، وارتبك أهل الصدق في المضيق، وأنت -اللَّهُـــمَّ- بعبادك وذوي الرغبة إليك شــفيق، وبإجابة دعائهم وتعجيل الفرج عنهم حقيق.

اللَّهُـــمَّ فصلِّ على محمد وآلِ محمـــد، وبادرنا منك بالعون الذي لا خذلان بعده، والنصر الذي لا باطل يتكأّده، وأتِحْ لنا من لدنك متاحاً فيّاحاً، يأمن فيه وليك، ويخيب فيه عدوّك، وتقام فيه معالمك، وتظهر فيه أوامرك وتنكشف فيه عوادي أعدائك[١].

اللَّهُمَّ بادرنا منك بدار الرحمة، وبادر أعداءك من بأسك بدار النقمة.

اللَّهُمَّ أعنّا، وأغثنا، وارفع نقمتك عنّا، وأحِلَّها بالقوم الظالمين)[٢].

وفي دعائـــه بعـــد أن يُظهر نِعَم الله على عباده ورحمتـــه وفضله، فإنه عليه السلام يطرح معارضتـــه للأنظمة الجائرة ضمن دعائه، ويبيّن ما ارتكبته هذه الأنظمة من جرائم وخروقـــات وتعدّيات على حقوق أصحاب الحق، وهـــم الأئمة عليهم السلام وكيف أنهم أُبعِدوا عن حقوقهم وممارستها...

(١) في المصدر: (وتنكفّ فيه عوادي عِداتِك).

(٢) مهج الدعوات لابن طاووس: ٨٠، طبع مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٤ هـ.ق.

(اللَّهُــمَّ أنت الأول بلا أوّلية معــدودة، والآخر بلا آخرية محدودة، أنشــأتنا لا لعلّــة اقتســاراً، واخترعتنــا لا لحاجة اقتــداراً، وابتدعتنا بحكمتــك اختياراً، وبلوتنــا بأمرك ونهيك اختبــاراً، وأيّدتنا بالآلات، ومنحتنا بالأدوات، وكلّفتنا الطاقة، وجشّــمتنا الطاعة، فأمرت تخييراً، ونهيت تحذيراً، وخوّلت كثيراً، وســألت يسيراً، فعُصي أمرك فحلمت، وجُهــل قدرك فتكرّمت، فأنت ربّ العــزّة والبهاء، والعظمة والكبرياء، والإحسان والنعماء، والمنّ والآلاء، والمنح والعطاء، والإنجاز والوفاء.

ولا تحيط القلوب لك بكُنه، ولا تدرك الأوهام لك صفةً، ولا يُشبهك شيء من خلقك، ولا يَمثُل بك شيء من صنعتك.

تباركت أن تُحسَّ أو تُمس، أو تُدركك الحواسّ الخمس، وأنّى يدرك مخلوق خالقه؟ تعاليت –يا إلهي– عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

اللَّهُــمَّ أدِلْ[١] لأوليائــك مــن أعدائك الظالميــن، الباغين الناكثين القاســطين المارقيــن، الذين أضلّــوا عبادك، وحرّفوا كتابــك، وبدّلوا أحكامــك، وجحدوا حقك، وجلســوا مجالس أوليائــك، جرأةً منهم عليك، وظلماً منهم لأهل بيت نبيك عليهم سلامك وصلواتك ورحمتك وبركاتك، فضلّوا وأضلّوا خلقك، وهتكوا حجاب ســترك عن عبادك، واتخــذوا –اللَّهُم– مالك دُوَلاً، وعبادك خَــوَلاً[٢]، وتركوا اللَّهُم عالم أرضــك في بكماء عمياء ظلماء مدلهمّــة، فأعينهم مفتوحة، وقلوبهم عميئة، ولم تبق لهم اللَّهُم عليك من حجة، لقد حذّرتَ اللَّهُمَّ عذابك، وبيّنــت نكالك، ووعدت المطيعين إحســانك، وقدّمت إليهم بالنذر، فآمنت طائفة.

(١) الإدالة: الغلبة.

(٢) الخَوَل: واحدة خائل، وهم العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية، وخَوَل الرجل: حَشَمه، والخَوَل: ما أعطى الله سبحانه وتعالى للإنسان من النِعَم. لسان العرب: ٤/٢٥٠ (مادة خول).

فأيّد اللَّهُم الذين آمنوا على عدوّك وعدوّ أوليائك، فأصبحوا ظاهرين، وإلى الحق داعين، وللإمام المنتظر القائم بالقسط تابعين.

وجدِّد اللَّهُم على عدوّك وأعدائهم نارك وعذابك، الذي لا تدفعه عن القوم الظالمين.

اللَّهُمَّ صلِّ على محمد وآل محمد، وقوّ ضعف المخلصين لك بالمحبة، المشايعين لنا بالموالاة، المتبعين لنا بالتصديق والعمل، المؤازرين لنا بالمواساة فينا، المُحبين ذكرنا عند اجتماعهم، وشُدَّ ركنهم، وسدِّد لهم اللَّهُمَّ دينهم الذي ارتضيته لهم، وأتمم عليهم نعمتك، وخلِّصهم واستخلصهم.

وسُدَّ اللَّهُم فقرهم، والمم اللَّهُم شعث فاقتهم، واغفر اللَّهُمَّ ذنوبهم وخطاياهم، ولا تُزغ قلوبهم بعد إذ هديتهم، ولا تُخلِّهم أي ربِّ بمعصيتهم، واحفظ لهم ما منحتهم به من الطهارة بولاية أوليائك، والبراءة من أعدائك، إنّك سميع مجيب، وصلّى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين)[١].

هكذا كان الإمام الجواد عليه السلام كآبائه الطاهرين من قبل، يُصدر معارفه إلى الأُمّة عن طريق الدعاء، وهي قنوات أمينة تضمن وصول رؤى الأئمة إلى الناس بعيداً عن توجّسات النظام ومراقبته لتحركاتهم عليهم السلام، وبذلك فقد نجحت انسيابية المعرفة إلى أعماق المجتمع بطريقة لم يكن للنظام أن يمنعها، فهي تراتيل القدِّيس في أعماق المحن وأغوار النوائب.

(١) حياة أُولي النُّهى: ٢٢٧، عن مهج الدعوات: ٨٠-٨٢.

(محمد).. الإمام.. القديس.. ذلك المعجز

ولم يقف القوم عند (محمدٍ) الحكيم عند هذا الحدّ من عبقات بلاغته الموروثة من آبائه حتى يُتوِّج عطاءه بالمعجزة الشاهدة على صدق دعواه، أو بالكرامة المؤيدة لمقامه الإلهي...

إنّه (محمد) الإمام.. الحجّة.. القِدِّيس الذي يبعث الأمل في نفوس أتباعه، بل في نفوس الكثير حينما ينقطع عنهم حديث القرب إلى الله، وحينما يُحال الزمان إلى خواطر مغامرات القتل والحيل، أو مدّعيات القداسة المزيّفة، أو تتهاوى القيم من أجل كسب قضية يرعاها البلاط ويتدافع عليها فقهاؤه، أولئك المتسوِّلون على أبوابه، أو المقتنصون رضا الخليفة، أو المزدحمون على عطاء القصر الملوكي في زحمة الفتاوى التي يطلقها الفقهاء إرضاءً لنزوات أسيادهم، أو شهوات الوزراء المدجَّجِين بمدى التحايل وخطط المؤامرات، تلتبس على الأُمة مصاديق القداسة، وتختلط عليها حقائق الصدق من تسويلات الدجل، فينفرج الأمر عن (محمد) المعجز، ذلك الإمام الذي جرت على يده الكرامات، وتدحرجت من تحت قدميه مّدعيات بني العباس الذين أوهموا الناس بأحقّيّة الخلافة دون غيرهم، وتنازع أسلافهم مع أهل الحق، فاحتلبوا شطرها ملأ القعب دماً عبيطاً، كما أشار إلى ذلك عليٌّ عليه السلام في تقويمه لتهالك القوم عليها.

وهكذا ينتزع (محمد) الإمام شرعية الخلافة وأحقّية السيادة بما أثبته من أنّه هو القدّيس المعجز...، فضلاً عمّا أثبته لأولئك المنكرين لإمامته، أو المشكّكين في انتسابه لآبائه الطاهرين.. فأجرى الله على يده كرامات الإمامة ومعجزات الحُجّة، وكم هي وطيدة الانتساب لكرامات الآباء الميامين يوم كان الأتباع يتطاولون بأمانيّهم أن يريهم الله كراماته في أوليائه، تجري أمامهم وتحدث براهينها كلّما أحوجتهم المحاججة أو الدليل لإثبات أحقّيّة ما يتعتقدون في أهل البيت فيُفيضون

مـــا أفاض الله عليهم من هذه الكرامة، أو تلك المعجزة، أو ذلك البرهان الذي لا يفتأ في إثبات الحق لأهله..

ومحمد بن علي الجواد عليهما السلام من أهل هذه المعجزات المنتســـبة لآل الله الميامين.. ولربّمـــا يجد البحث طريقـــه في الكمّ الهائل من كرامات الجـــواد ومعجزات إمامته؛ لِما تقتضيه ظروف الإثبات والانتســـاب، فكان محمد عليه السلام ســـخياً على الملأ من الناس؛ ليفيض بما أفاض الله عليه من الحق والدلالة على النهج القويم. وســـنحاول الخوض في عباب هذه الملاحم الجوادية من الكرامة والمعجز والدليل، وما جرى له -صلوات الله عليه- مع أصحابه ومع غيرهم ممّن توقّفوا في القول بإمامته والبخوع بأحقّيّتـــه. وممّا يجدر التنويه إليه أنّ الإمام كان كثـــيراً ما يقف على ضمائر الناس وما في نفوسهم بفراسة تزيل الشك، وتقتلع الشبهة، وتهدي إلى الصراط المستقيم.

الإمام وصغر السنّ

علـــي بن إسماعيل، عن محمـــد بن عمر، عن علي بن أســـباط، قال: رأيت أبا جعفـــر عليه السلام قد خرج علـــيَّ، فأحددت النظر إليه وإلى رأســـه وإلى رجله لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فخرّ ساجداً وقال: إنّ الله احتجّ في الإمامة بمثل ما احتجّ في النبـــوة، قـــال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَـــاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[١] ، وقـــال الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُـــدَّهُ﴾[٢]، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[٣]، فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتى وهو ابن أربعين سنة[٤].

(١) مريم: ١٢.

(٢) يوسف: ٢٢.

(٣) الأحقاف: ١٥.

(٤) بصائر الدرجات: ص٢٥٨، ح١٠، عنه البحار: ١٠٠/٢٥، ح١، و٣٧/٥٠، ح١، الكافي: ٣٧٤/١، ح٧.

الإمام الجواد عليه السلام

أوّل الممهدين للقضية المهدوية

لا يمكن لنا أن نتجاوز قضية خطيرة في حياة الإمام الجواد عليه السلام وهو يمهّد لحفيده الإمام المهدي عليه السلام وذلك كون المواصفات التي اشترك بها الإمام المهدي مع جده الجواد يجعلهما يسعيان في تحقيق هدف بناء الدولة العالمية.. وبمعنى آخر أن الإمام الجواد سيشارك كذلك في تشييد مقدمات الدولة العالمية التي سيقوم بمهمتها الإمام المهدي عجل الله فرجه.

فكما أن الإمام الهادي شـــارك في ترســيخ فكرة غيبة الإمام المهدي إلى حدٍ ما، وتلاهُ ولده الإمام الحســن العســكري في تأكيده هذه القضيــة فإن الإمام الجواد بالمشتركات التي يتصف بها سيشارك كذلك في بناء المفهوم المهدوي ولكن بشكله الأولي ولعل إثبات هذا الأمر يستند إلى معطيات عدة:

أولاً: إن الإمامــة المبكــرة التي افتتح عهدها الإمــام الجواد عليه السلام كانت «الحجر الأســاس» للإمامة المبكرة التي اتصف بها الإمــام المهدي عليه السلام علماً أن الإمامين الهادي والعســكري كانا مما اتصفا بهذه الصفــة المباركة، إلا أن ظهورها في الإمام المهدي كان أكثر وضوحاً ســيما أن الإمامة في عهده ســتتميز بالغيبة وأن هذه المهمة هي الأخطر والأشد في مفهوم الإمامة كما أنها هي الأخطر في حياة الأمة إذ ســتمر الأمة بتجربةٍ عسيرة يغيب فيها إمامها وقائدها وهي -كما نعلم- من المهام الصعبة التي لا بد أن تمر بها الأمة في ظروفٍ غير عادية، وستشــهد المرحلة مخاضاً عســيراً تتعرض فيه الأمة للامتحان وســتكون إمامة الإمام المهدي المبكرة موضع جدلٍ لدى البعض ومورد تشكيك لدى آخرين، إلا أن إمامة الإمام الجواد المبكــرة قطعت الطريق على تخرصات البعض وأعطــت للقضية المهدوية حيويتها بشكلٍ لا يقف معه أي إشكال.

ثانياً: إن تصريح النبي صلى الله عليه وآله عن حفيده الإمام الجواد عليه السلام والذي يذكره بصفة خاصة وهي الانتساب إلى أَمَةٍ نوبية «بأبي ابن خيرة الإماء، ابن النوبية الطيبة الفم، المنتجبة الرحم»[١]، وكأن الانتساب إلى الإماء ستشكل -في وقت ما- مشكلة يثيرها المعارضون لإمامة الجواد، إلا أن النبي صلى الله عليه وآله يسبق الأحداث ويشير إلى كرامة هذا الانتساب الذي سيثمر الإمامة المبكرة المتمثلة بالإمام الجواد ويضيفها إلى إحدى مناقبه الكريمة كما أنه صلى الله عليه وآله يعدها مفخرة تميز الإمام الجواد عليه السلام، وكذا الحال في السيدة نرجس أم الإمام المهدي فهي بالرغم من كونها أَمَة إلا أن ذلك يضيف معلماً مهماً في حياة الإمام الذي ينتسب إلى هذه السيدة وهو لم يخف من خطورة هذا الانتساب، ولعل ذلك كان سبباً في موافقة المعترضين على إمامته أو كسراً لنزعة الاستعلاء القومي الذي كان يعيشه المجتمع وتخفيفاً لهذه الوطئة «العروبية» التي يعيشها البعض لذا فتمجيد أم الإمام محمد الجواد عليه السلام على لسان النبي صلى الله عليه وآله أو إبلاغ الإمام الكاظم عليه السلام سلامه[٢] لها أو تقديس الرضا لها بقوله عليه السلام: (قدست أم ولدته خلقت طاهرة مطهرة)[٣].

كل ذلك لتأكيد مبدأ التقوى وتقديمه على النظرة القومية التي يعشها المجتمع الإسلامي آنذاك والذي تتعزز أكثر في أيام الإمام المهدي عجل الله فرجه، لذا فإن الثناء والتبجيل الذي أتحفه النبي صلى الله عليه وآله لأم الجواد عليه السلام سيكون كذلك مشمولاً به أم الإمام المهدي لإطفاء نائرة العصبية القومية التي استقادها المعترضون على إمامة المهدي عليه السلام.

وهكذا فإن التشابه بين الإمامين في الصفات والمشتركات أتاحت للغيبة الصغرى أن تأخذ مسيرتها الطبيعية في خضم الأحداث الساخنة التي تشهدها الساحة السياسية العباسية يومذاك.

---

(١) أصول الكافي: ١: ٣٢٣ من حديث ١٤.

(٢) وفاة الإمام الجواد عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٥.

(٣) عيون المعجزات: ١٠٨.

وراثةٌ عيسوية

عن أحمد بن محمد الحضرمي، قال: حج أبو جعفر عليه السلام، فلمّا نزل زبالة فإذا هو بامرأة ضعيفة تبكي على بقرة مطروحة على قارعة الطريق، فسألها عن علة بكائها؟ فقامت المرأة إلى أبي جعفر عليه السلام وقالت: يا ابن رسول الله، إنّي امرأة ضعيفة لا أقدر على شيء، وكانت هذه البقرة كلّ ما أملكه، فقال لها أبو جعفر عليه السلام: (إن أحياها الله تبارك وتعالى لكِ فما تفعلين؟) فقالت: يا ابن رسول الله، لأُجدّدنَ لله شكراً.

فصلّى أبو جعفر ركعتين ودعا بدعوات، ثم ركض برجله البقرة فقامت البقرة، وصاحت المرأة: عيسى بن مريم، فقال أبو جعفر عليه السلام: (لا تقولي هذا، بل عباد مكرمون، أوصياء الأنبياء)[1].

وقد حرص أبو جعفر -صلوات الله عليه- أن يؤكد للمرأة إنّما يكون إحياء البقرة راجعاً لله تعالى، ونحن عباد مكرمون، وحاول الإمام عليه السلام أن يؤكد أنّهم أوصياء أنبياء؛ لئلاّ يتوهم السامع شيئاً وراء ذلك يُساء فهمه، وهم أوصياء الأنبياء بمعنى ورثتهم، وإلاّ فهم أعظم مقاماً من الأنبياء؛ لأنّهم ورثة خاتم الأنبياء.

شهادة الزور

روي عن ابن أروبه أنّه قال: إنّ المعتصم دعا جماعة من وزرائه فقال: اشهدوا لي على محمد بن علي بن موسى زوراً واكتبوا أنّه أراد أن يخرج، ثم دعاه فقال: إنّك أردت أن تخرج عليَّ.

فقال عليه السلام: (والله ما فعلت شيئاً من ذلك).

---

(١) الثاقب في المناقب لابن حمزة: ٥٠٣.

قال: إنّ فلاناً وفلاناً شهدوا عليك، فأُحضروا فقالوا: نعم، هذه الكتب أخذناها من بعض غلمانك!

قال: وكان جالساً في بهوٍ، فرفع أبو جعفر عليه السلام يده وقال: (اللَّهُمَّ إن كانوا كذبوا عليَّ فخذهم).

قال: فنظرنا إلى ذلك البهو كيف يرجف ويذهب ويجيء، وكلّما قام واحد وقع! فقال المعتصم: يا ابن رسول الله، إنّي تائب ممّا قلت، فادعُ ربّك أن يسكنه!

فقال عليه السلام: (اللَّهُمَّ سكِّنه، إنّك تعلم أنَّهم أعداؤك وأعدائي) فسكن[1].

نعم... عندي سلاح رسول الله

روى بكر بن صالح، عن محمد بن فضيل الصيرفي، قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام كتاباً، وفي آخره: هل عندك سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ونسيت أن أبعث بالكتاب، فكتب إليّ بحوائج، وفي آخر كتابه (عندي سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو فينا بمنزلة التابوت في بني إسرائيل يدور معنا حيث درنا، وهو مع كل إمام)[2].

المداراة خير من المكاشفة

أحمد بن الوليد، عن أبيه، عن الصفار، عن ابن معروف، عن ابن مهزيار، عن بكر بن صالح، قال: كتب صهر لي إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام: أنّ أبي ناصب

(١) الخرائج والجرائح: ٢/٦٧٠، ح١٨، عنه البحار: ٥٠/٤٥، ح١٨.

(٢) الخرائج والجرائح: ١/٣٨٧، ح١٦، عنه البحار: ٥٠/٥٣، ح٢٧، العوالم: ٢٣/٨٧، ح١٢.

خبيث الرأي، وقد لقيت منه شدّة وجهداً، فرأيك -جعلت فداك- في الدعاء لي، وما ترى جعلت فداك، أفترى أن أُكاشفه أم أُداريه؟

فكتب عليه السلام: (قد فهمت كتابك وما ذكرت من أمر أبيك، ولستُ أدعُ الدعاء لك إن شاء الله، والمداراة خير لك من المكاشفة، ومع العسر يُسرٌ، فاصبر إنّ العاقبة للمتّقين، ثبّتك الله على ولاية من تولّيت، ونحن وأنتم في وديعة الله التي لا تضيع ودائعه).

قال بكر: فعطف الله بقلب أبيه حتى صار لا يخالفه في شيء[1].

إحباط مخططات النظام

محمد بن الريّان قال: احتال المأمون على أبي جعفر عليه السلام بكل حيلة، فلم يمكّنه في شيء، فلمّا اعتلّ وأراد أن يبني عليه ابنته دفع إليّ مائة وصيفة من أجمل ما يكنَّ، إلى كل واحدة منهنَّ جاماً فيه جوهر يستقبلون أبا جعفر عليه السلام إذا قعد في موضع الأختان، فلم يلتفت إليهنَّ.

وكان رجل يقال له: مخارق صاحب صوت وعود وضرب، طويل اللحية، فدعاه المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان في شيء من أمر الدنيا فأنا أكفيك أمره، فقعد بين يدي أبي جعفر عليه السلام فشهق مخارق شهقةً اجتمع إليه أهل الدار، وجعل يضرب بعوده ويغنّي، فلمّا فعل ساعة وإذا أبو جعفر عليه السلام لا يلتفت إليه لا يميناً ولا شمالاً، ثم رفع رأسه إليه.

---

(١) أمالي المفيد: ص١٩١، ح٢٠، عنه مستدرك الوسائل: ١٧٨/١٥، ح١، البحار: ٧٩/٧١، ح٧٩،و٥٠/٥٥، ح٣٠.

وقال عليه السلام: (اتّقِ الله يا ذا العثنون!).

قال: فسقط المضراب من يده والعود، فلم ينتفع بيده إلى أن مات.

قال: فسأله المأمون عن حاله؟ قال: لمّا صاح بي أبو جعفر فزعت فزعة لا أفيق منها أبداً[1].

وكأنّ احتياله لإدخاله فيما فيه من اللهو والفسوق. وبنى على أهله بناءً: زفها. والعُثُنون: اللحية، أو ما فضل منها بعد العارضين، أو ما نبت على الذقن وتحته سُفلاً، أو هو طولها، والعُثُنون أيضاً: شعيرات تحت حنك البعير[2].

ولا يهمّنا سرد معجزاته، فهي أكثر من أن تحصى، وقد أعرضت عن تعدادها لعلمي أنها لا يستوعبها مختصر استطرد فيه بعض سيرته، فآثرت العدول عن سردها لكثرتها، ووجدتُ أنّه عليه السلام قد اختصّ بكثرة المعاجز وتعداد الكرامات ويبدو أنّ متطلّبات عصره التشكيكي بإمامته المبكرة اقتضت إظهار كراماته بهذا الكمّ الهائل، تأكيداً للحجّة، وإتماماً للبينة التي يتطلّبها مقام إمامته الذي كثر التساؤل عن إمكانيته وهو لا يزال ابن العاشرة أو دونها، ممّا حدا بالبعض أن يتوقف إن لم يتساءل، أو يتساءل إن لم يشكّك، أو يشكّك إن لم يعارض، وهكذا تضطرب مفاهيم الناس بإمامته عليه السلام، وتعتور الأذواق بإمكانية أدائه لمهمّة آبائه الذين تصدّوا للإمامة في سنٍّ اعتاد عليه الناس، وألفته العامة، واستأنس في أهليته الجميع.

ولم يكن محمد بن علي الجواد عليه السلام ذلك الإمام الثماني من العمر قد اختلف فيه الجميع، بل قبله مَن عرفه، وأثنى عليه مَن خالطه، وأكبرهُ مَن سمع منه، وآمن به مَن جالسه، واعتقد فيه مَن شاهده، ولكأنّي أجد سرد الفضائل فضولاً من القول،

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٤/٤٢٧، عنه البحار: ٥٠/٦١، ح٣٧.

(٢) البحار: ٥٠/٦٢ بيان.

فخشيت الإطالة وآثرت الإيجاز، وتوسّلت بمآثر الثناء، وتقاريض المدح، والإمام أرفع من أن يُعرف قدره بمدح المادحين، وإطراء الحامدين له، إلاّ أنّ ذلك من مجريات البحث ومطاوي الكلام، وعزمت استعراض بعض ما حضرني من كلمات الثناء وجمل التقريض.

روى الشيخ المفيد بسنده عن الريان بن شبيب ما نقله عن المأمون: وأمّا أبو جعفر محمد بن علي عليهما السلام قد اخترته لتبريزه على كافة أهل الفضل في العلم والفضل مع صغر سنّه، والأعجوبة فيه بذلك، وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته منه، فيعلموا أنّ الرأي ما رأيت فيه.

فقال بنو العباس: إنّ هذا الفتى وإن راقك منه هديه فإنّه صبيّ لا معرفة له ولا فقه،فأمهله ليتأدّب ويتفقّه في الدين، ثم اصنع ما تراه بعد ذلك.

فقال لهم: ويحكم! إنّي أعرف بهذا الفتى منكم، وإنّ هذا من أهل بيتٍ عِلمهم من الله، وموادِّه وإلهامه، لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبيّن لكم به بما وصفت من حاله...[1].

وفي وصيته لابنته: يا بنية، احتمليه فإنّه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وما نقله الطبرسي عن موقف المأمون من الإمام بقوله: وكان المأمون مشغوفاً بأبي جعفر عليه السلام لِما رأى من فضله مع صغر سنّه، وبلوغه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل.. وكان متوفّراً على إكرامه وتعظيمه وإجلال قدره[3].

وعن ابن الصباغ المالكي: قال الشيخ كمال الدين بن طلحة: مناقب أبي جعفر

(١) الإرشاد: ٢/٢٨٢.

(٢) موسوعة الإمام الجواد عليه السلام: ١/٣٦٢.

(٣) نفس المصدر.

محمد الجواد عليه السلام ما اتسعت جلبات مجالها، ولا امتدّت أوقات آجالها، بل قضت عليه الأقدار الإلهية بقلة بقائه في الدنيا بحكمها وسجالها، فقلّ في الدنيا مقامه، وعجّل عليه فيها حِمامه. فلم تطل لياليه ولا امتدّت أيامه، غير أنّ الله خصّه بمنقبة أنوارها متألقة في مطالع التعظيم، وأخبارها مرتفعة في معارج التفضيل والتكريم[١].

وقال الشبلنجي: وإن كان (الجواد عليه السلام) صغير السنّ، فهو كبير القدر، رفيع الذكر، ومناقبه عليه السلام كثيرة[٢].

وما نقله ابن شهر آشوب، عن الأسقف الذي رأى الإمام عليه السلام، فقال: يوشك أن يكون هذا الرجل نبياً أو من ذرّية نبي[٣].

هذه شهادة مَن شاهد (محمداً) وعرف مكارمه، وسمع مناقبه، فألجأه الإعجاب إلى التقريض فيه، وآذنه الإكبار للثناء عليه، ودعاهُ الإكرام إلى التبجيل والتعظيم، وهو بعد ذلك لحمة رسول الله وبضعته ووريثه، فيتصاغر عند ذلك كل ثناءٍ وذكرٍ كبير.

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ: ٢٦٦.

(٢) نور الأبصار: ٣٢٦.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب: ٣٨٤/٤.

النهاية المؤسفة.. وفتوى فقهاء الإرهاب

ومن المؤسف أن تصل التنافسات بين فقهاء البلاط للوصول إلى حظوة القرب من الخليفة العباسي بأن تُحاك ضد الإمام المؤامرات لتصفيته بعد أن رأوا أنّه عليه السلام قد اكتسح وجودهم المهزوم، بعدما اعتقد الخليفة بأعلميته وأنّه حاز من العمل ما لم يكن أحد منهم قد حازه وحباه الله به واجتباه، وكان العمل قائماً على التنافس بين علماء البلاط لإثبات أيّهم أصلح أوفق لخدمة السلطان، وإذا ما هدّد وجوده مقامَهم العلمي -في نظر السلطان- وأخّرهم عن رتبة التقدم فإنّهم يسعون لاتخاذ أيِّ إجراء يضمن إبقاءهم على هيبتهم، أمّا إذا كسرت هيبة هؤلاء المتدافعين على مكانتهم لدى البلاط فإنّهم لا يتأخّرون عن التآمر والإنتقام من أجل الإبقاء على مكانتهم، وبما أنّ الإمام الجواد عليه السلام يبقى منافس فقهاء البلاط فإنّ هؤلاء لم يجدوا بعده عليه السلام هذا غير تأخّرهم عن رتبتهم الرسمية، فهم إذن بعد ذلك لا بد أن يستعيدوا مقامهم المفقود من أعلمية (محمد بن الرضا) والمنافس لهم في منتدياتهم العلمية، فيدبّروا التآمر عليه وتصفيته، والانتقام لكرامتهم المفقودة في أروقة البلاط، والمناظرة التالية تتيح -في نظر هؤلاء- أن يتفقوا على تصفية الإمام الجواد عليه السلام وقتله:

روى العيّاشي في تفسيره بإسناده عن زرقان صاحب ابن أبي داوود قال: رجع ابن أبي داوود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتمّ، فقلت له في ذلك، فقال: وددت اليوم أنّي قدِمت منذ عشرين سنة، قلت له: ولم ذاك؟

قال: لِما كان من هذا الأسود[1] أبي جعفر محمد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين.

قال: قلت له: وكيف كان ذلك؟

---

(١) هكذا يلقبون الإمام الجواد عليه السلام لشدّة سمرته؛ تنكيلاً به وحقداً عليه.

قال: إنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أحضر محمد بن علي.

فسألنا عن القطع في أيِّ موضعٍ يجب أن يُقطع؟

قال: فقلت: من الكرسوع.

قال: ما الحجة في ذلك؟

قال: قلت: لأنّ اليد هي الأصابع، والكفّ إلى الكرسوع لقول الله في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾(١)، واتفق معي على ذلك قوم.

وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق.

قال: وما الدليل على ذلك؟

قالوا: لأنّ الله لمّا قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(٢) في الغسل دلَّ ذلك أنَّ حدّ اليد هو المرفق.

قال: فالتفت إلى محمد بن علي عليه السلام، فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟

فقال عليه السلام: (قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين).

قال: أقسمت عليك بالله لَما أخبرت بما عندك فيه.

فقال عليه السلام: (أمّا إذا أقسمت عليّ بالله، إنّ أقول: إنهم أخطؤوا فيه السنّة، فإنّ

(١) النساء: ٤٣.

(٢) المائدة: ٦.

القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكف).

قال: وما الحجة في ذلك؟

قال: (قول رسول الله ﷺ: السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله﴾(١)، يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾(٢)، وما كانه لله لن يقطع).

قال: فأعجب المعتصم ذلك، وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ.

قال ابن أبي داوود: قامت قيامتي وتمنّيت أنّ لم أكن.

قال ابن أبي زرقان: إنّ ابن أبي داوود قال: صرت إلى المعتصم بعد ثلاثة، فقلت: إنّ نصيحة أمير المؤمنين عليَّ واجبة، وأنا أُكلّمه بما أعلم أنّي أدخل به النار.

قال: وما هو؟

قلت: إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيته وعلماءهم لأمر واقع من أمور الدين، فسألهم عن الحكم فيه، فأخبروه بما عندهم من الحكم في ذلك، وقد حضر مجلسه أهل بيته وقوّاده ووزراؤه وكتّابه، وقد تسامع الناس بذلك من وراء بابه، ثم يترك أقاويلهم كلهم لقول رجل يقول شطر هذه الأمّة بإمامته، ويدعوه أنّه أولى منه بمقامه، ثم يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء.

قال: فتغير لونه وانتبه لِما نبّهته له، وقال: جزاك الله عن نصيحتك خيراً.

---

(١) الجنّ: ١٨.

(٢) الجنّ: ١٨.

قـــال: فأمر اليوم الرابع فلاناً من كتّاب وزرائه بأن يدعوه إلى منزله، فدعاه، فأبى أن يجيبه، وقال: علمت أنّي لا أحضر مجالسكم.

فقـــال: إنّي إنّما أدعوك إلى الطعام وأُحـــب أن تطأ بابي[١] وتدخل منزلي فأتبرّك بذلك، فقد أحب فلان بن فلان من وزراء الخليفة لقاءك.

فصار إليه، فلمّا طعم منها (أي من الطعام) أحسَّ السُـــمّ، فدعا بدابّته، فسأله ربّ المنزل أن يقيم.

قال: خروجي من دارك خير لك.

فلم يزل يومه ذلك وليله في خلفة[٢] حتى قبض[٣].

هـــذه هي مؤامرات النظام العباســـي وفقهائه، فهم بعد أن دعـــوه وعزموا عليه الإجابة غاضهم تقدمه على جميع فقهاء البلاط، وعلموا أنّ ذلك ســـيكون ســـبباً في تفاقم أمره عند المســـلمين، واعترافهم بأنّ شـــطر هذه الأُمة تقول بإمامته وهذا دليل على أنّ الأُمّـــة تنصاع للإمام عليه السلام معتقدةً بإمامته وأهليته للخلافة دون بني العباس، ومجرد احتمال الجهاز العباســـي من تأثير الإمـــام في الأُمّة، واحتمالية أن تكون مجريات الأُمور لصالح الإمام فإنّ الخليفة العباسي لم يمهله حتى أمر بتصفيته فوراً؛ دون أدنى انتظار وحساب لأي العواقب المترتبة على هذا التصرف الطائش.

وبالرغم من كون الإمام الجواد يمثّل الخطّ المنافس لخطّ فقهاء البلاط فإنّ المعتصم حسم الفتوى لصالح قول الإمام عليه السلام، وكأنّ المعتصم لم يرتضِ أقوال هؤلاء الجمع من فقهاء الدولة؛ لِما يستبين الرشد برأي الإمام عليه السلام، فالإمامَ من بيت زُقّوا العلم زقّاً، واجتباهم الله بأسرارٍ خصّهم بها وحباهم.

---

(١) وفي رواية: تطأ ثيابي.

(٢) الخلفة: الإسهال.

(٣) مدينة المعاجز: ٥٣٥-٥٣٦ عن كتاب حياة أولي النهى: ٢١١-٢١٣.

وقفة مع حادثة شهادة الجواد عليه السلام

أمعن العباسيون -كأي سلطة إرهابية- مع معارضيهم التقليديين أئمة أهل البيت عليهم السلام شتى صنوف الإرهاب والقتل والتنكيل، ولا بد أن تختتم أية مأساة لإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام بقضية إعلامية يعملون من خلالها إلى التقليل من شأن هذا الإمام الشهيد أو ذاك الإمام المهتضم، وهكذا مع جميع أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين قضوا على أيديهم والإمام محمد بن علي الجواد أحد الرموز الذي استهدفته الدعاية العباسية عرضت تفاصيل شهادته بشكل تحاول التقليل من شأنه حيث نقلت رواية في هذا الشأن حيث وردت قصة تشير أن جعفر بن المأمون دفع بأخته أم الفضل لاغتيال الإمام الجواد وبعد تفاصيل القصة قال الراوي وعمدت إلى سم وضعته في قنديل، وبعد أن أصاب منها دفعته إليه فلما علم قرب الأجل المحتوم ونزول القضاء أخذه منها وقضى فيه حاجته وبعد أن نفذ السم فيه وأحس بحرارته تغير لونه فندمت وبكيت على هذا الفعل التي تزلزل الجبال الرواسي وتتفطر لها السموات فقال عليه السلام: ما بكائك، والله ليضربنك الله بفقر لا ينجبر وبلاء لا يستتر فابتليت «بناسور» في أغمض المواضع من بدنها فكانت العلة تنتقض عليها في كل وقت وأنفقت جميع ما تملكه حتى احتاجت إلى الاسترفاد وكانت تنتصب للأطباء فلم تنتفع بكل علاج حتى هلكت[1].

والقصة رواها بشكلها المختصر ابن شهرآشوب بشكل مرسل لم يستند إلى سند ولا يمكننا الاعتماد على هذه القصة كون خبر الشهادة تعدد إلىعدة روايات كلها تؤكد أنه عليه السلام اغتيل بعنبٍ مسموم أو شرابٍ مسموم وقد أوردت المصادر هكذا:

---

(١) وفاة الإمام الجواد عليه السلام للسيد عبد الرزاق القرم: ٦٨.

١- آيـات الوصية للمسـعودي أن أم الفضل قدمت له عنباً مسـموماً. راجع صفحة

٢- دلائل الإمامة للطبري أنه سمّ بعنب رازقي، راجع دلائل الإمامة ص

٣- عيون المعجزات للشيخ حسين بن عبد الوهاب أنه سُم بعنب، راجع العيون صفحة

٤- مدينة المعاجز للسـيد هاشم البحراني أنه سـم بطعام، راجع مدينة العاجز صفحة

إلىغير ذلك ممن أرّخ للإمام الجواد عليه السلام وقصة المنديل المسموم استحدثها الأمويون حيث نقلها الخوارزمي في مقتله: (أن معاوية أرسل إلىجعدة بنت الأشعث منديلاً مسـموماً مع خمسـين ألف درهم على أن تسم الحسن عليه السلام به فلما أصاب منها دفعته إليه فكانت به منيته...)[١].

ومعلـوم أن الأمويون كانوا من وراء تأليف الروايات الكاذبة ضد الإمام الحسـن عليه السلام ولا بـد أن يصيـب الإمام الجواد بمثل هذه الروايـات وأمثالها ما يعمل على التقليـل من أهمية محاولة الاغتيـال لدى المتلقي لأن القصـة تُخدش في مقام أي شـخص من عامة الناس إذا نقل عنه هـذا الأمر فكيف بالإمام الأمر الذي دفع الكثيرون للتردد في قبول مثل هذه الحكايات، ويؤسفني أن بعض الخطباء يتصدى لرواية مثل هذه الأكاذيب دون تمعن وتدقيق.

على أن العلامة الشـيخ في الأصبهاني حيـث يرثي الإمام الجواد عليه السلام يذكر أنه مات بطعام مسموم عند الافطار عليه وقد كان صائماً قال رضوان الله عليه:

---

(١) مقتل الخوارزمي ١: ١٣٢.

قضى شهيداً وهو في شبابه دُسَّ إليه السُم في شرابه

أفطر عن صيامه بالسمِّ فانفطرت منه سماء العلم

والقصيدة أثبتناها في باب القصائد من هذا الكتاب.

الخطاب الأدبي الشيعي في خضمِّ تداعيات الصراع العباسي

لم يقف جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول في حدود النضال السياسي الذي التزمه أتباع أهل البيت عليهم السلام، بل تعدّى إلى المقاومة الثقافية والفكرية.

فالعباسيون بالرغم من انتسابهم إلى شعار (الرضا من آل محمد) من أجل تسويق حركتهم لدى العامة، إلاّ أنّهم تحرّكوا باتجاه المعارضة الفكرية للمذهب العلوي الذي يتزعّمه آل البيت عليهم السلام، وجعلوه منافسهم الوحيد الذي يحسب له حسابه، وبالرغم من الاعتناء بالمنحى الأدبي لهذا العصر ومباراة شعرائه في مديح الخلفاء العباسيين، إلاّ أنّ حالة حذرٍ شديدٍ أصابت الجهد الأدبي الشيعي إبّان تلك الفترة الحرجة.

فالعباسيون يرون أنّ منافسيهم من العلويين أوفر حظّاً لدى الأُمّة، وهم يحاولون إثبات خلافتهم بما يتيح لهم قطع الطريق على آل علي وشيعتهم من المطالبة بأحقّية الخلافة، ويعملون على نشر ثقافة الانتساب التي من شأنها أن تنقل العباسيين من أتباع إلى متبوعين، بمعنى أنّ دعوى الانتساب لأهل البيت قد اخذت مسارها في الثقافة العباسية، واستمكنت هذه الثقافة من الخطاب العباسي الذي برمجه أبو جعفر المنصور، وقدّمه على أنّه الفلسفة الفكرية والخطاب الرسمي للدولة العباسية القائمة على التنافس للعلويين، لذا كانت سمة الخطاب العباسي يؤطِّره المنصور ومَن

عقبه (بأننا أهل البيت)، أملاً في أن تكون ثقافة الانتساب هذه قد أخذت محلّها من قلوب العامّة، إلاّ أنّ ذلك لم يؤثر أثره في قناعة المسلمين، فالانتساب الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام غير الانتساب السياسي لهم، والمسلمون كانوا يتعاطون مع هذا الخطاب بأنّه الخطاب السياسي الذي لا يقوى على الصمود أمام التحدّيات الحقيقية للانتساب الواقعي لآل البيت عليهم السلام..

إلاّ أنّ هذا الخطاب لم يقف على مستوى التسويق السياسي بقدر ما هو سياسة تصفية الخصوم والمنافسين، فالعلويون الأوفر حظّاً في التطلّعات التي تحملها العامة حيال قضية الخلافة وكونهم الأجدر في الأهلية لهذا المنصب الإلهي، نجد أنّ العباسيين على مستوى التأييد العام تتراجع شعبيتهم بعد ما اكتشفوا سياسة التنكيل والقتل التي استخدمها المنصور قبالة الوجود العلوي، الذي كان سبباً في إنجاح عملية الثورة والانقلاب على الحكم الأُموي، على أمل أن يكون للعلويين حظوة الحكم ومسؤولية الدولة الجديدة، أو على أقلّ تقدير سيكون هناك متنفّس من شأنه أن يعطي للعلويين حرية التحرك الطبيعي ضمن النظام العام، في حين يجد المسلمون أنّ العلويين صاروا الأكثر اضطهاداً وتنكيلاً إبّان خلافة العباسيين، وحسابات العامة لم توفّق في ظلّ العنف العباسي ضدّ أبناء عمومتهم العلويين حينما ظنّوا بأنّ العباسيين مؤهّلين لرفع الحيف عن آل علي واسترداد حقوقهم وإعادة اعتبارهم المسلوب.

وتتفاقم أزمة التنافس السياسي بين العباسيين وبين معارضيهم من آل علي، حتى يصل الأمر إلى مصادرة الحقائق التأريخية؛ وذلك من خلال ما بذلته الدولة العباسية من دعاوى استحقاق الخلافة وعدم مصداقية الوراثة لآل علي، وجعلت إعلامها موجّهاً بحملته في أدبياتها العامة من أنّ الاستحقاق لخلافة النبي صلى الله عليه وآله هي لبني العباس دون آل علي، وأنّ دعاوى العلويين في الخلافة غير ثابتة، ويمكن ردّها بما يتسنّى شعراء البلاط من تقديم الخطاب السياسي على أساس شعري يتغنّى به في محافلهم الرسمية.

ففي بدايات العصر العباسي يشتدّ الصراع حول فلسفة الخلافة، ويشعر العباسيون أنّ العلويين يهدّدون وجودهم بالشرعية التي يمتاز بها آل علي في أحقّيّة الخلافة، ولم يجد العباسيون من أُسلوب رادع لأُطروحات العلويين غير الأُسلوب الاستباقي في محاولة تزوير الحقائق ومصادرة تلك المبادئ التي تعارف عليها المسلمون من كون الخليفة الشرعي بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب، في حين يُعدُّ بنو العباس في مرتبة متأخرة من استحقاق الخلافة، وهم اليوم يتصدّون لذلك ويجعلون أنفسهم الأحق والأولى بخلافة رسول الله ﷺ دون غيرهم، وهي محاولات تحتاج إلى جهدٍ استثنائي في تغيير مسارات المفاهيم العامة للخلافة الإسلامية، لذا فإنّ الجهد الأدبي كان المتقدم في مخاض هذا التثقيف العكسي الذي يتزعّمه أُدباء البلاط، ولعلّ نموذج هذا العنف الفكري في فرض أُطروحة الدولة يتزعّمه مروان بن أبي حفصة، الذي كانت قصيدته بمثابة الخطاب الرسمي المتشدّد الذي فرض رؤى العباسيين في الخلافة بقوله:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ   لبني البناتِ وراثةُ الأعمام؟

فكان ذلك الطرح مؤثّراً على المستوى العام في المفهوم الثقافي التأسيسي لأُطروحة الخلافة، ممّا دعا شعراء الشيعة وهم في أوج الدفاع عن عقيدتهم وحقوق أئمتهم أن يتصدّوا لهذا الطرح والادّعاء؛ لذا فإنّ جعفر بن عفّان الطائي الشاعر الكوفي المعاصر للإمام جعفر الصادق عليه السلام -المتوفى سنة ١٥٠هـ- انتفض بقصيدته المعروفة للردّ على تخرّصات ابن أبي حفصة، فقال:

لِمَ لا يكون وإنّ ذاك لكائن   لبني البناتِ وراثةُ الأعمام؟

للبنت نصفٌ كاملٌ من ماله   والعمّ متروك بغير سِهامِ

ما للطليق وللتراث وإنما   صلّى الطليق مخافة الصمصام[1]

(١) أدب الطف ١: ١٩٣ عن الأغاني ٩: ٤٥.

ولعلّ ما قاله مروان ابن أبي حفصة قد اخذ مأخذه حتى بعد عقود، فكان أئمة آل البيت عليهم السلام يزعجهم هذا التهوّر في قلب الحقائق، والسعي من أجل تغيير مسارات المفهوم الإسلامي في الخلافة، فالإمام الرضا يستذكر هذه الحادثة فيقول بعد أن دخل عليه جماعة فرأوه متغيّراً، فسألوه عن ذلك؟ قال:

بِتُّ ليلتي ساهراً متفكراً في قول مروان بن أبي حفصة، وذكر البيت المتقدم قال: ثم نمت فإذا أنا بقائل قد أخذ بعضادة الباب وهو يقول:

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... للمشركين دعائم الإسلام
لنبي البنات نصيبهم من جدّهم ... والعمّ متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنّما ... سجد الطليق مخافة الصمصام
قد كان أخبرك القران بفضله ... فمضى القضاء به من الحُكّام
إنّ ابنَ فاطمةَ المنوَّه باسمه ... حاز الوراثة عن بني الأعمام
وبقى ابن نثلة واقفاً متردداً ... يبكي ويسعده ذوو الأرحام[1]

ولم تكن دعوى العباسية بالاستحقاق الوراثي حديثة عهد في زمن الإمام الصادق عليه السلام أي إبّان بدايات العهد العباسي، بل أوعز أحد المحقّقين -وهو صاحب كتاب أدب الطفّ- إلى أنّ المعنى هذا لم يكن من ابتكار مروان بن أبي حفصة، بل هو قد تسرَّب إليه من أحد موالي تمام بن معبد بن العباس بن عبد المطّلب، حيث كان يخاطب به الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، فيقول له:

جحدت بني العباس حقّ أبيهم
فما كنت في الدعوى كريم العواقب
متى كان أولاد البنات كوارثٍ
يحوز ويُدعى والداً في المناسب[2]

(١) أدب الطف: ١٩٤/١.

(٢) راجع أدب الطفّ: ١٩٤/١ ولعل ذلك تفرّد به المحقق السيد جواد شبر في إرجاع مروان بن أبي حفصة بسرقته إلى مولى تمام.

وهو يعني أنّ هذا الخطاب العباسي كان مبكّراً جداً، أي بعيد شهادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وفي خلافة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، بالرغم من أنّ تقارباً في وجهات النظر بين العباسيين وبين آل علي –عدا ما ارتكبه عبيد الله بن العباس من خيانته المعروفة مع الإمام الحسن عليه السلام– كان موجوداً، أي أنّ نزعة الخلاف على وراثة النبي وخلافته مبكّرة جداً تحظى بنزعة عباسية مبيّتة؛ أخذت متنفّسها إبّان العهد العباسي، وعند اشتداد التنافس بين البيتين، وفي القرن الثالث الهجري –وهو أوج التنافس العلوي العباسي– تشتدّ لهجة محاولات تفيد الاستحقاق الوراثي لخلافة النبي صلى الله عليه وآله من قبل الخطاب الرسمي العباسي، والذي يمثّله بأعنف صورة الخليفة العباسي عبد الله بن المعتزّ، الذي أنشد قصيدته المعروفة التي ينكر من خلالها استحقاق آل البيت وراثة النبي، وأنّهم هم الأقرب في هذا الاستحقاق، فقال في بعض قصيدته:

ألا من لعيني وتسكابها ... تشكي القذا وبكاها بها
ترامت بنا حادثات المنون ... ترامي القِسيّ بنشّابها
ويا ربَّ ألسنة كالسيوف ... تقطع أرقاب أصحابها

ويقول فيها:

ونحن ورثنا ثياب النبي ... فكم تجذبون بأهدابها
لكم رحم يا بني بنته ... ولكن بنو العمّ أولى بها

ومنها:

قتلنا أُميةَ في دارها ... فنحن أحقُّ بأسلابها
إذا ما دَنَوتُم تلقَّيتُمُ ... زبُوناً أقرَّت بجلّابها

وهو يحاول أن يجرِّد العلويين من حقوقهم في الخلافة، ويفتخر في الثورة على الأُمويين، وبذلك فهم –على حدّ تعبيره– أحقّ بالاستيلاء على الخلافة بعد الأمويين.

وقد تحدثنا في بداية البحث بأنّ إسقاط الدولة الأُموية هي مبادرة علوية وفكرة

اختصّ بها أبو هاشم محمد بن الحنفية، وتكلّمنا عن ذلك بإسهاب. ومحاولة عبد الله بن المعتزّ في تحويل الخلافة بحسب دعواه من آل علي إلى آل العباس دعوى خطيرة؛ إذ تتحدث عن الخطاب الرسمي العباسي الذي التزمه هذا الشاعر الخليفة.

ويبدو أنّ الردود على هذه الدعوى كانت كثيرة، إلاّ أنّها مكتّمة لم تر النور، ولم تستطع البوح والانتشار إلاّ بعد أربعة قرون حين تصدّى الشاعر صفيّ الدين الحلّي (٦٧٧-٧٥٢هـ) من الردّ على دعوى ابن المعتزّ ليجاري قصيدته بقصيدة طويلة يقول فيها:

ألا قُل لشرّ عبيد الإله ... وطاغي قريشٍ وكذابها
وباغي العباد وباغي العنا ... د وهاجي الكرام ومغتابها
أأنت تفاخر آل النبي ... فتجحدها فضل أحسابها؟!
بكم باهل المصطفى أم بهم ... فردّ العداة بأوصابها
أعنكم نفى الرجس أم عنهم ... لطهر النفوس وألبابها
أم اللهو والخمر من دأبكم ... وفرط التلاوة من دابها؟
وقلت: ورثنا ثياب النبي ... فكم تجذبون بأهدابها؟
وعندك لا يورث الأنبياء ... فكيف حضيتم بأثوابها؟!
فكذّبت نفسّك في الحالتين ... ولم تنهَ نفسَك عن عابها
أجدُّك يرضى بما قلته ... وما كان يوماً بمرتابها
وكان بصفّين من حِزبهم ... لحرب الطغاة وأحزابها؟!

إلى أن يقول:

وصلّى مع الناس طول الحياة ... وحيدر في صدر محرابها
فهلاّ تقمّصها جدّكم ... إذا كان إذ ذاك أحرى بها
وإذ جعل الأمر شورى لهم ... فهل كان من بعض أربابها؟

أخامسهم كان أم سادساً وقد جليت بين خطابها؟
وقولك أنتم بنو بنته ولكن بنو العمِّ أولى بها
بنو البنت أيضاً بنو عمّه وذلك أدنى لأنسابها
فدع في الخلافة ذكر الخلا ف فلست ذلولاً لِركَابها
وما أنت والفحص عن شأنها؟ وما قمّصوك بأثوابها
وما ساورتك سوى ساعة فما كنت أهلاً لأسبابها
وكيف يخصّوك يوماً بها ولم تتأدّب بآدابها؟!
وقلت بأنكم القاتلون أُسود أُمية في غابها
كذِبتَ وأسرفتَ فيما أدّعيت ولم تنهَ نفسَك عن عابها
فكم حاولتها سراة لكم فردّت على نكص أعقابها
ولو لا سيوف أبي مسلم لعزّت على جهد طلاّبها
وذلك عبد لهم لا لكم رعى فيكم قرب أنسابها
وكنتم أُسارى ببطن الحبوس وقد شفّكم لثم أعتابها
أفأخرجكم وحباكم بها وقمّصكم فصل جلبابها
فجازيتموه بشرِّ الجزاء لطغوى النفوس وإعجابها
فدع ذكر قوم رضوا بالكفاف وجاؤوا الخلافة من بابها
هم الزاهدون هم العابدون هم الساجدون بمحرابها
هم الصائمون هم القائمون هم العالمون بآدابها
قم قطب ملة دين الإله ودور الرحى حول أقطابها
عليك بلهوك بالغانيات وخلِّ المعالي لأصحابها
فذلك شأنك لا شأنهم وجري الجياد بأحسابها[1]

(١) معجم شعراء الحسين عليه السلام: ١/٤٦١.

إنّ هـذه القصيدة من القصائد المهمة التي أوضحت التطرف في الخطاب الرسمي العباسـي، الذي حاول إحالة مسـألة الخلافة إلى قضية سياسية تنافسية يراد من خلالها إقصاء المنافسـين لهم؛ وذلـك في محاولة إزواء العلويـين عن حقوقهم في الخلافة.

كانـت قصيدة صفـيّ الدين الحلّي تمثّل الخطاب العقائدي للأمّة الإسـلامية، والذي من خلالها يحاكم ابن المعتزّ على تطرّفه في نفي كثير من الحقائق، وادّعاء ما لا يمكن أن يصمد أمام أدنى مراجعة تأريخية.

فصفـيّ الدين الحلّي يحاجـج ابن المعتزّ بمواقف جدّه العبـاس بن عبد المطلب الـذي رفض أن يكون طرفاً في الخلافة مع وجود الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، بل سـعى العباس أن يدعم موقف ابن أخيه علي بعرض المبايعة عليه، وسـيكون العباس قد أكد خلافة علي عليه السلام كونه شـاهداً قوياً في اسـتحقاق علي للخلافة بوصية من رسـول الله صلى الله عليه وآله إلاّ أنّ رفض عليٍّ لهذا العرض كان محسوباً له حسابه، وهذه الطريقة من المبايعة السـرية بل الأُسَـرية مرفوضة في مفهوم عليّ عليه السلام، فهو كما أعلن النبي صلى الله عليه وآله عن خلافته في غدير خمٍّ أمام الملأ من المسلمين؛ فإنّ تجديد بيعته في الأحداث السـاخنة من انعقاد السـقيفة وتربّص الآخرين لمنصب الخلافة أبعد علياً أن يخوض مع الخائضين في إثبات حقه بالخلافة، وأرادها اختيارية بإرادة الجميع أو الأكثر على الأقلّ، دون أن تتدخّل الإرادات الشخصية في قضية تفوّق السـعي الأُسَري أو التنافس القبائلي، وهكذا نجح علي عليه السلام في عدم الانجرار بهذه التسـابقات الخاسرة، وأبقى قضية الخلافة فوق كل الاعتبارات، وكونها قضية إلهية بوصية السماء.

ثم يحتج الحلّي بالقرب النسبي الذي جعله ابن المعتزّ حجة له، وأثبت أنّ آل عليٍّ عليهم السلام هم الأقرب نسـباً وحسباً، فهم أولاد بنت وأبناء عمومة، فلا يعدّون الأباعد نسبة لأبناء عمومته صلى الله عليه وآله.

ومن الطريف أنّ صفيّ الدين الحلّي يذكر ابن المعتزّ بأنّه ليس أهلاً في المحاججة بالخلافة، فهو أضعف من أن يكون مطالباً بها وهو لم يستلمها سوى ساعة، إشارة إلى قصة خلافته التي دامت يوماً واحداً فقط، وهي أقصر مدة لخليفة عباسي يستلم الخلافة بعد المقتدر الذي ثار عليه الأتراك ونصبوا مكانه ابن المعتزّ الملقب بالمرتضى بالله، ثم أرجع الأتراك المقتدر في اليوم الثاني وأُلقي القبض على ابن المعتزّ وأُودِعَ السجن، ثم قُتل صبراً، وبذلك فإنّ صفي الحلي يلغي عن ابن المعتزّ إمكانية الاستحقاق لمنصب الخلافة فضلاً عن إمكانية الدفاع عن بني أبيه في استحقاقهم للخلافة دون آل علي عليه السلام.

والقصيدة كذلك تُبعد إمكانية العباسيين عن استلام الخلافة لولا جهود أبي مسلم الخراساني، الذي قدّم لهم إمكانياته في الوصول إلى الخلافة بسبب ما كان يعتقده أبو مسلم من قرب العباسيين لآل علي عليه السلام، فهو رعاية لحق العلويين -كما عليه أكثر المؤرخين مع تحفّظنا على هذا الاتجاه، وليس هنا محل ذكره- عمل أبو مسلم على إيصال العباسيين إلى هذه الخلافة، ثم هم لم يكافئوه إلاّ بالقتل والتنكيل، وكأنّ الغدر كان لهم شيمة وعادة، والظاهر أنّ الحلّي لم يُرد بذلك الدفاع عن أبي مسلم بقدر ما أراد إدانة العباسيين في كون تصفية الخصوم بل وحتى الحلفاء لأدنى خلاف.

تلك هي سياسة عباسية متأصلة لا يمكن الغضّ عنها ضمن معطيات تعاملهم مع الخصوم السياسيين والعقائديين، وآل علي يمثّلون كِلا التوجّهين في المخاصمة العقائدية والمنافسة السياسية مع العباسيين، فحال أبي مسلم الخراساني الحليف القوي مع العباسيين -والذي كان سبباً رئيساً في وصولهم إلى الحكم- مصيره القتل لمجرد الشك في ولائه وانحراف توجّهاته عنهم، فكيف بحال آل عليٍّ الأكثر تأثيراً على العباسيين في منافساتهم ومعارضتهم لهم؟!

وجهد آخر يستحقّ الوقوف لديه، وهو ما قدّمه العباس بن الحسن بن عبيد

الله بـــن العباس بـــن علي بن أبي طالـــب عليهم السلام -حفيد العباس بن علي شـــهيد كربلاء- من محاولة أدبية موفّقة يستعرض فيها صلاحية العلويين، وأنّهم هم مفخرة قريش، فإذا كانت لقريش مفخرة في انتســـاب العلويين لهم، وهو خطاب يستبطن المعارضة العنيفة للجهد العباسي الذي تزعمه أُدباء البلاط في غضون عصر الرشيد العباســـي الذي كان يحسب لهذا الأديب الهاشمي حسابه، وبذلك فسيكون شعره في هذا الخصوص خطاباً رسمياً علوياً يوقف محاولات العباسيين في المفاخرة ودعوى استحقاق الخلافة، فيقول:

وقالـت قريـش لنـا مفخـر ... رفيـع علـى النـاس لا ينكر
فقـد صدقـوا لهـم فضلـهم ... وبينـهم رتـب تقـصر
وأدنـاهـم رحمـاً بالنبـي ... إذا فـخروا فَبِـهِ المفخر
بنا الفخر منكـم علـى غيـركم ... فـأمّـا علينـا فـلا تفخـروا
ففـضل النـبي عليـكم لنـا ... أقـرّوا بـه بعـدما أنـكروا
فـإن طِـرتُمُ بسـوى مجـدنا ... فـإن جنـاحكـم الأقـصر[1]

وهـــي أبيات يظهر فيهـــا أحقّية العلويين وتقدّمهم علـــى غيرهم، وأنّ كل فخر وحسب ونسب فهو دونهم.

إذن فالخطاب الأدبي الشيعي إبّان العهد العباسي الأول كان في صدد الدفاع عن مبتنيات الخلافة الإســـلامية، والحفاظ على المفهوم المقدّس لأساسيات النزاع بين فريقَي المخاصمة العقائدية، والتي أُحيلت إلى نزاع سياســـي يأخذ مديات المواجهة والتصدي في بعض صوره، والأُطروحة الثقافية والفكرية في صوره الأُخرى.

فعرض ســـريع لجهود الأُدباء الشيعة إبّان الإمام الصادق عليه السلام وما بعده يكشف مدى رغبة الأدب الشـــيعي في العمل على تأصيل أُطروحة الفلســـفة الإمامية في

(١) الفصول المختارة للسيد المرتضى: ص٤١، أدب الطفّ: ١/٢٢٧، أعيان الشيعة: ٧/٤١١.

الخلافة، وأنّ الاستحقاق الحقيقي لهذا المنصب لا يناله إلاّ أهله، وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ لذا فقد تعهّد الأدب الشيعي في تلك الفترة إلى تثبيت مبادئ الأهلية والاستحقاق للوصول إلى الخلافة، وليس المدّعيات السياسية التي تزعّمها العباسيون وأتباعهم من شعراء البلاط.

الكميت بن زيد مقدّمة شعراء التحدّي

لم ننسَ ما قدّمه الكميت بن زيد الأسدي وهو ينافح عن مبدأ العقيدة والدفاع عن حقوق أهل البيت عليهم السلام، وتتأتّى أهمية جهوده الأدبية في كونها تحت رعاية الإمام الباقر عليه السلام إبّان احتدام المواجهة الفكرية بين آل البيت وبين الأُمويين، الذين حاولوا الإطاحة بمبتنيات الخلافة الحقّة، إذ نجد أنّ الكميت كان يحظى بعناية الإمام الباقر عليه السلام فيوجّهه ويسدّده حتى في فنّيات شعره.

فقد روى صاعد مولى الكميت، قال: دخلنا على أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام فأنشده الكميت:

مَنْ لقلبٍ متيَّم مستهام غير ما صبوةٍ ولا أحلامِ؟
بل هواي الذي أجنّ وأبدى لبني هاشم أجلّ الأنامِ

فأنصت له عليه السلام فلما وصل إلى قوله:

أخلص الله هوايَ فما أغرق نزعاً ولا تَطيش سهامي

قال له الباقر عليه السلام: «قل: فقد أغرق نزعاً ولا تطيش سهامي».

فقال: يا مولاي، أنت أشعر منّي بهذا المعنى[1]، وعرض عليه مالاً فلم يقبل،

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢٤٤/٤، عنه البحار: ٣٣٨/٤٦، ح٢٧.

وقال: والله ما قلت فيكم شيئاً أُريد به عرض الدنيا، ولا أقبل عليه عوضاً إذا كان لله ورسوله.

قال عليه السلام: (فلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لحسان: لا زلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت عنّا أهل البيت).

قال: جعلني الله فداك. ثم لم يبقَ من أهل البيت إلاّ من حمل إليه شيئاً فلم يقبل منهم[1]. وفي رواية أنّه قال: ولكن تُكرمني بقميص من قمصك، فأعطاه[2].

ودخل يوماً على الإمام فأنشده:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم ... لم يبقَ إلاّ شامت أو حاسد
وبقى على ظهر البسيطة واحد ... فهو المراد وأنت ذاك الواحد

هذه هي علاقة الكميت بالإمام الباقر عليه السلام، ومعنى ذلك: أنّ الكميت لا يتصرّف في أدبياته الشعرية إلاّ بتوجيه من الإمام يومذاك، يوم كان الصراع الفكري مع أهل البيت عليهم السلام على أوجه مع الأُمويين؛ وذلك على خلفية واقعة كربلاء وشهادة الإمام الحسين عليه السلام.

وكانت هاشميّاته التي كلّفته الكثير من التشرّد والترقّب من الأُمويين تستثير حفيظة الأُمويين، حتى دفعت بهشام بن عبد الملك أن يهدر دم الكميت ويلاحقه في كل مكان، وكانت الهاشميات تحدياً جدّياً للأُطروحة الأُموية، والتي يقول فيها:

ألا حيّيت عنّا يا مدينا ... وهل ناس تقول مسلمينا

إلى أن يقول:

---

(١) مختصر أخبار شعراء الشيعة للمرزباني الخراساني: ص٧٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤/٢١٤، عنه البحار: ٤٦/٣٣٣، ح١٦.

لنا قمر السماء وكلّ نجم   تشير إليه أيدي المهتدينا
وجدت الله إذ أسمى نزاراً   وأسكنهم بمكّة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصاتٍ   وللناس القَفا ولنا الجبينا

السيد الحميري راوية الفضائل

هذه هي جهود الكميت، ولم يكن السيد الحميري بأقلّ جهداً من الكميت، فلربّما قد تضاعف جهد السيد الحميري إبّان العهد العباسي أضعاف ما قدّمه الكميت في عهد الأُمويين، وتعهّد السيد الحميري أن يقدِّم فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام (المحظورة) وقتذاك؛ نتيجة التنافس العباسي وتحدّي نظامه في إلغاء ثقافة الفضائل العلوية عن ذاكرة الأُمّة، بل محاولة مسخها إلى فضائل عباسية موضوعة يتكفّل بوضعها رواة البلاط، فكان السيد الحميري قد صاغ فضائل عليٍّ في ملاحم أدبية شعرية يتغنّى بها الناس؛ ليقطع الطريق على الفضائل (العباسية) الموضوعة، والتي تعهّدت نشرها فرق إعلام النظام العباسي، حتى أنّه لم يستطع العباسيون إيقاف نشر هذه الفضائل ومنع التعاطي بها بعد أن نشرها السيد الحميري على ألسنة الناس وتناقلها رواة الشعر ونُقّاد الأدب.

فهو ابتداءً يبرّر موقفه هذا من شعر التحدّي في مديح أهل البيت عليهم السلام والدفاع عن نهجهم بقوله:

فيا ربِّ إنِّي لم أُرِد بالذي به
مدحت علياً غير وجهك فارحمِ(١)

وله أيضاً:

(١) ديوان السيد الحميري: ص١٨٨.

وإذا الرجال توسّلوا بوسيلة فوسيلتي حبّي لآل محمد[1]

فهو إذن ينطلق من عقيدته الراسخة في الدفاع عن مبتنيات مذهب أهل البيت عليهم السلام.

ولربّما كان السيد الحميري يوثِّق مروياته الأدبية في فضائل علي عليه السلام من محدّثي أهل السنّة ورواتهم الموثّقين ليرويها شعراً، فكان يكتب الفضائل عن سليمان بن محراث الكوفي (ت ١٤٨هـ)، ويخرج من عنده ويقول في تلك المعاني شعراً، وهو إشارة إلى جهود السيد الحميري في توثيق فضائل آل البيت عليهم السلام في شعره، ومن مصادرها المقبولة لدى «أطراف النزاع» وهو سليمان بن مهران الكوفي الذي قبل روايته أهل السنّة والشيعة، سواء ممّا عدّ بعضهم أنّ شعر السيد الحميري شعراً توثيقاً لفضائل عليٍّ فضلاً عن كونه متحدّياً للنظام العباسي آنذاك.

رواة فضائل آخرين

وكان لسفيان بن مصعب العبدي الكوفي موقف في نشر فضائل أهل البيت عليهم السلام، إذ كان يروي هذه المناقب عن الإمام الصادق عليه السلام ليصيغها شعراً، فيقول في بعض مقطوعاته:

آل النبي محمد أهل الفضائل والمناقب
المرشدون من العمى والمنقذون من اللوازب
الصادقون الناطقون السابقون إلى الرغائب

إلى قوله:

(١) ديوان السيد الحميري: ص٨٩.

فهـــم الصـــراط فمســـتقيـــم　　فـــوقـــه نـــــاج ونــــاكـــب
صــدّيقـــة خُـلقـــت لصدّيـــقٍ　　شـــريـــفٍ في المـنـــاســب
أسمـــاهُــــما قُـرِنــــا علــــى　　سـطـرٍ بـظـلّ الـعـرش راتـب
كــــان الإلـــــــه وليّــــــها　　وأمـيـنـه جـبريـل خـاطـب
والَمهـــــر خُـــمـــــسُ الأرض　　مـوهـبـة تـعـالـت في المـواهـب
ونـهابـها مــــن حمــــل طوبــــى　　طـيّـبـت تـلـك المـنـاهـب[1]

وللمفجّــع البصري وصف رائع لعلي بن أبي طالب عليه السلام، وكونه أشــبه بالأنبياء في صفاته:

أيّهـا اللائـمي لحبّـي عليــاً
قـم ذميـماً إلى الجحيم خـزِيّـا
أبـخيـر الأنـام عـرضـت لازلـ
ـت مـــذوداً عـن الهـدى مـزويّـاً؟
أشبــه الأنبيــاء كهــلاً وزولاً
وفـطـيـمـاً وراضـعـــاً وغـذيّـا
كـان في علمـه كـآدم إذ علـم
شـــرح الأسمــــاء والمـكـنـيّـا
وكنـوح نجـا مـن الهـلك مـن
سـير في الفـلك إذ عـلا الجـوديّـا
ولــه مــن أبيــه ذي الأيـدِ
إسماعيل شبه ما كـان عنّي خفيّا[2]

(١) الغدير: ٢/٤٢٩، أعيان الشيعة: ٧/٢٧٠.
(٢) أعيان الشيعة: ١/١٧٢، الغدير: ٣/٤٨٣.

إلى آخر قصيدته، والذي يريد به قوله: أنّ من كان شبيهاً بالأنبياء فهو الأحقّ بوراثتهم وخلافتهم، وليس غيره من أولئك المدّعين العباسيين.

وأيمن بن خزيم يشير في بعض مقطوعاته بأحقّية أهل البيت عليهم السلام بقوله:

نهارُكُمُ مكابدةٌ وصومُ وليلُكُمُ صلاةٌ واقتراءُ

إلى قوله:

أأجعلُكم وأقواماً سواءً وبينكم وبينهم الهواء
وهم الأرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء[1] ؟!

وحالة التفضيل هذه بين أهل البيت عليهم السلام وبين غيرهم من أقوام يرون أنّهم أحقّ منهم بالخلافة –وهم بنو العباس– لون آخر من ألوان المعارضة الأدبية.

خلاصة القول: والذي نريد قوله: إنّ الصراع العلوي العباسي لم يقف عند حدود الحركات المسلّحة التي تزعّمها علويون ثوريون مثل بعضهم رؤية أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومثل الآخر توجّهاته الخاصة به، إلاّ أنّها لم تخرج عن الاعتراض على ظلم الحاكم وتعسّفه، أي أنّ الصراع أخذ أبعاده الأُخرى، وهو البعد الثقافي والفكري، وارتأى أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يأخذوا بتوجّهات الأُدباء وجهودهم الشعرية؛ لتنحى منحى المعارضة الفكرية، ولتعمل على تطويق خروقات الطرح العباسي الذي أخذ أبعاداً خطيرة، وهي التصفية الفكرية التي صاحبت التصفية الجسدية لمعارضيهم من العلويين.

والتغييب الفكري لم يكن بأقلّ خطورةً من التغييب الجسدي الذي مارسه العباسيون، وعمد أهل البيت عليهم السلام إلى تطويق المدّعيات الفكرية التي خاضها

(١) أعيان الشيعة: ٣/٥٢٠، شرح احقاق الحق للسيد المرعشي: ٩/٦٩٧.

العباسيون في ضمن خطابهم السياسي، وعمل الأئمة على تثبيت الأُسس ودعائم المفاهيم الإسلامية، وترشيد الرؤى المطروحة التي كادت أن تنقضّ على ثوابت الأُمة، عندها لم يستطع الجهد العباسي إلاّ أإن يقف عاجزاً عن امتداداته في دعاواه بالخلافة ومحاولة حجبها عن أهلها، ولم يكن أهل البيت عليهم السلام يسعون في هذا الاتجاه للوصول إلى الحكم بقدر ما كانوا يسعون للحفاظ على المبتنيات والأُسس الإسلامية التي تضمن انسيابية الحقائق التاريخية التي سعى العباسيون إلى تغييبها عن ذهن الأُمة.

إنّ الجهد الأدبي والفكري أوفق مع معطيات حركة أهل البيت عليهم السلام السلمية التي سعت إلى الحفاظ على الحقائق دون تحريفها على يد السلطة العباسية، وتمتين علاقة الأمة مع الحدث التاريخي الواقعي غير المحرّف، ولا ننكر أنّ العصر العباسي عمّق المنهج الأدبي في تعاطيه مع الأحداث بعد أن كان ديدن شعراء البلاط الاسترزاق على قصائد مدح الخلفاء، ومعلوم أنّ القصيدة لا تتجاوز مديح هذا الخليفة أو ذاك، ولا بد من أن يتعرض الشاعر إلى قضية محورية واحدة، وهي استحقاق العباسيين دون غيرهم الخلافة، ولازم ذلك أنّ غيرهم من معارضيهم -وهم العلويون- غير جديرين بالخلافة؛ ممّا عزّز هذه الرؤية عند العامة، وكادت أن تلغى عن أذهانهم الحقائق التأريخية التي ورثتها ثقافة صراع العلويين طيلة عقود مع مناوئيهم من الحكّام الأُمويين.

من هنا نجد أنّ عصور الأئمة من الباقر حتى الإمام الحجة عليه السلام قد خلت من قصائد الثناء والتقريض لهم من شعراء الشيعة الذين لازموهم، بل لم نجد -عدا بعض المفردات الشعرية وبعضها في عهد الإمام الباقر عليه السلام- قصيدة تثني على هذا الإمام أو ذاك، بل توجّه الجهد الأدبي وبحضورهم إلى الدفاع عن القضية الرئيسية، وهي الإمامة والخلافة الحقّة والتصدّي للمدّعيات العباسية، في حين نقرأ في التراث الأدبي الشعري المتأخر ما ينمّ عن توجّهات أدبية في مدح الأئمة عليهم السلام، وهو ما

يجيب عن التساؤل التالي: لَمَ لم يذكر الشعراء المعاصرون لأهل البيت عليهم السلام قصائد مـدح تخصّهم في حين نجدَ أن الجهد الأدبي منصبّاً على تأريخ مقطع واحد، وهو شـخصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام و خصائصه وعلاقة ذلك باسـتحقاق الخلافـة ووصاية النبي صلى الله عليه وآله، في حين يندر الجهد الأدبي الشـيعي عن مدائح أئمة أهل البيت عليهم السلام بالرغم من اختصاص بعض الشعراء بإمام من أئمة أهل البيت؟

وبهـذا فإنّ القول نفسـه ينطبق علـى حياة الإمام الجـواد عليه السلام، فإنّك لم تجد مـن المديح ما يذكر من شـعراء عصـره عدا ما تجده من قصائد المديح لشـعراء محدثين تنطوي على مشاعر خاصة يتأثر بها الشاعر حينما يقف على حياة الإمام الجواد عليه السلام، أو ما يعزّز وجدانياته الخاصة وهو يقرأ من سـيرة الإمام ما تجيش به شاعريته وتحتفل فيه ملكة الشعر وأحاسيس الولاء.

الإمام الجواد عليه السلام في الأدب العربي

هــذه باقة من بعــض ما وقفنا عليه من الشــعر في مديح الإمــام الجواد عليه السلام ورثائه،تمثّل تحوّلاً جديداً في الأدب العربي؛ ليخصّ تأريخ الإمام وحياته، منتزعاً من انطباعات الشــاعر وهو يتحدث عن وجدانياته وأحاسيسه عند قراءته لهذا المقطع التأريخي الخطير:

القصيدة الأولى

وهي للعلاّمة الشيخ محمد علي الأردوبادي الغروي

بــأي ثنــاء أقتفــي محكــم الذكــر
بمـدح بنيك المصطفين أولي الأمـر
وإنّـي وإن أفنيـت فيــهم مشاعــري
كـمـن شبّـه الـطـود المـمـنّـع بـالـذرّ
وإن كــان في الآي الكريمـة ذكـرهـم
فماذا عسى أن يقتني فيهم شعري؟!
فأيام تشــريق بهــم كــل دهــرهــم
وعـن ليلهم يحكي السنا ليلة القدر
وآخــر دعـوانــا أن الحمــد كلــه
لمـن خصّـنـا بـعـد الـولايـة بـالـشـكـر
فلـي مـن علـي والحســين وصنــوه
ذخـائـر تُـنـجيني لـدى موقف الحشر

وإنّ بزيــن العابــديــن وحبّــه
يهون غداة الموت حشرجة الصدر
ولي مـن ولاء الصـادقيـن وسيـلة
تطيب بها في برزخي نومة القبر
وفوزيَ في الدنيا بموسى بن جعفر
ويصلح في يوم الحساب به أمري
وأرجو بمولاي الرضا كل خطوة
لديه وأنجو عند مقتبل الضُرّ
وهذا أبو الهادي سيصبح جنتي
متى أعوزت يوم اللقا جن النصر
لــه جــذم فيــه النبــوة تزدهــي
وآصــرة تــزدان في طيّــب النجر
ونفس أناطت بالقديم حوادثاً
مضت قيد أمر منه أو منتهى زجر
وقدسيّ فيض منه بثّ على الدنا
فآثر في الأكوان طيباً على نشر
وإن قلت في حلم فثهلان دونه
وإن قلت في بأس ففي الجحفل المجر
وإن قلــت في عــزم يــدك رواســي
الجبـال فأرسـل بالمهنـدة البـتر
وعن رأيه لوح المقـادير نُضِّـدت
صحائفه حيث القضاء بها يجري

ويستصغر الأطواد باذخ علمه
كما استَزَر الدهماء بالنائل الغمر
وفي مبدأ الإيجاد أوّل صادر
له عنّت الأشباح في عالم الذرّ
وقد نيطت الآفاق فيه بأنفسٍ
عليهنّ أضحى موئل النهي والأمر
لئن يمشي في صقع الشهود فمستو
ى القداسة منه شعّ في عالم الأمر
مُواليه في يوم التغابن رابح
كما أنّ من ناواه فيه على خُسر
وأرجو نجاةً في يوم فاقتي
كما طاب قبلاً في مودّته نجر
ويا بُعدَ أُمِّ الفضل ممّا أتت به
لمعتصم في فعله بِعُرى الكفر
أحالت صباح الدين أسود فاحماً
دجنّةً غيٍّ من جنوحٍ إلى غدر
أبا جعفر أبكيتَ شرعة أحمد
وغادرت طرف الدين أدمعه تجري
وأذكيت في الأحشاء جذوة لوعة
عليك فأحنيت الضلوع على جمر[1]

(١) وفاة الإمام الجواد عليه السلام لعبد الرزاق الموسوي المقرم: ٨٠-٨٥.

القصيدة الثانية

وهي للعلّامة الشيخ محمد رضا المظفر

حَـــيِّ قلبــاً تُـذيبــه الحســرات
إنّمــا المــوت في الـتـصـابي حـيـاة
كل مـا تعـرف الـورى عــن حيــاة
الـنـفـس في غـير حبّـهـا مـنـكـرات
أبـهــذا الخلـــي حســب المعنــى
خلسة في الـدجـى رعتـهـا الـوشـاة؟
ينثنـــي في طـــلا الغـــرام فيصـــحو
فـيرى الـسـكـر مـا عـليـه الـصـحـاة
شتّ نحو الفضاء عينـاً علـى البـعد
وعـــين الـــوصـــال فـيـه الـشـتـات
حيث تلك الزلفـى وقـد هجـع النـا
س ومـــالـــت عـلـيـهـم الـغـفـلات
حيــث دار الهــوى بكــأس تناجيــه
فــحــطّــمــن دونــــه الــكــاســات
حيث ألقى طمر السفاسـف وارتـا
ح لـقــدس عـنـه الـسـمـاء مـرآة
فاعتـلى غبــطة يطــلّ علــى الكــو
ن بحـيـث اطـمـأنّـت الحـركـات

واختلى والخيال بالألف لا
تلهيه إلاّ بإلفِهِ السكرات
إنّ في ذلك التجلّي تخلّي
النفس عمّا جاذبة الشهوات
أنا فارقت في هوى الإلف صحبي
وكذا الناس في الهوى أشتات
إنّ نفساً تعلّقت فيه تكفيها
ابتهاجاً بذكره اللذّات
وحياتي فيه افتضاحي لتقفوا
الناس أثري فتكثر الأموات
أيّهذا الخلّي حيٌّ على الحبّ
فهذي المناهل المترعات
خلِّ في ذلك الفضاء سبيل القلب
حيث القلوب منتهلات
أترى القلب يستقيم سبيلاً
وحنايا الضلوع منحنيات؟
إنّما الماء بالإناء فلا
تطبع إلاّ بظرفه الهيئات
ظلمات هذي الحياة ولا
مصباح إلاّ ما أوقدته (الهُداة)
عنصر للوجود كوّنه الله
فكانت بنوره النيّرات

مثل النور والزجاجة والمصباح
أنتم وأنتم المشكاة
أنتم النور للكليم على الطور
وأنتم لآدم الكلمات
أنتم باب حطّة من أتاه
كان أدنى ما يرتجيه النجاة
وكفى مفخراً بغير ولاكم
لا تتمّ الصلاة والصلوات
بالإمام (الجواد) منكم تمسّكتُ
وحسبي من قُدسه النفحات
حَدِثٌ قلّد الإمامة فانقا
دت لعلياء حكمه الحادثات
ابنُ سبعٍ ويا بنفسي قد
قام إماماً تُجلى به الكربات
إنّ هذا السرّ الخفيّ وما
أجلاه تُجلى بنوره الظلمات
لا تَخِلْ ويكَ وهو في المهد طفل
هذّبته بدّرِّها المرضعات
هو نور من قبل أن تتجلّى
بسنا الحق هذه الكائنات
جاء للأرض هادياً ونذيراً
فتنزّلن بالهنا المرسلات

طـاب في شهــر طــاعــة الله مــو
لــوداً فنيطت بحبّه الطاعات
اصـطفــاه الإلــه للخلــق قــوّا
مــاً فقامت لفضله المعجزات
عن علاه قاضــي القضـاة فَســَله
ولكم ضلّت السبيل القضاء
سَــلهُ لمّــا خــانتــه نجــواه غيــّاً
كيف دارت بجهلة الدائرات؟!
زعـم الغـضّ مــن معاليــه حتــى
فضحته المــزاعــم الفــاسدات
وعــليــه المــأمــون مــذمرّ سَــلهُ
أتــرى مــن إمــاه كــنّ البــزاة؟!
حيــن جــاء البــازيّ يحمــل مــن
حيات بحر أمواجه الزاخرات
ليــبيــن الحــق الصــراح وتعــلو
لسنا بيت (أحمــد) المكرمات
ليــس يلهو وليس يلعب مُذكـا
ن ولكن لتظهر الكائنات
وسَلِ السِـدرة التــي قــد حبــاها
بطهور فاضت به البركات
أورقــت غبــطة فبــاهــت فخــاراً
ســدرة المنتهى وهــذي الهبات

أثمرت حين أثمرت بالجَنْي الغَضِّ
وما فيه كالثمار النواة
وسَلِ الجعفريّ مذ جاء مغتمّاً
له والرقاع مشتبهات
وأبا سلمة الأصمّ فشافاه
هنيئاً فهذه الخطوات
معجزات تفنى النجوم حساباً
كيف تحصى أنوارها؟! هيهات
أتراني أستطيع مدح إمام
نزلت في مديحه الآيات؟!
إنَّ بيتاً له انثنى العرش طوعاً
قصرت عن ثنائه الأبيات
يا أبا جعفر، وما أنت إلاّ البحر
جوداً له الهدى مرساة
أنا عبد قد مسّني الضُرّ وافيتُ
وهذي بضاعتي المُزجاة
أتراني أعود في صفقة الخسر
وأنتم للمستجير الحُماة؟!
صُمتُ عن حبِّ ما سواكم لأزكُّو
وكذا الصوم للأنام زكاة
عذّب الله أُمّةً جَعجَعت فيكم
مقاماً قامت به الكائنات
قد تصابَوا في لَظى غضبِ
الجبار صُبّت عليهم اللعنات

القصيدة الثالثة

وهي للعلاّمة الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي قدس سره

رضاكِ وكلَ ما أبغي رضاكِ فما شِئتِ افعلي ودَعي جفاكِ
على عيني عتابك إن عتبت إذا ما كان عتبك عن رضاك
معاتبتي على التشبيب فيها ولم أذكرك لا وعلا هواك
ذكرت من المها جيداً وعيناً ومن شجر القنا خوط الأراك
فبالله انصفي هل ذاك ذنبي يعد أذاهما لم يخطئاكِ
وقيل: من الحبيبة، قلت: شمس فما انصرف الجواب إلى سواك
وحيّتني فقلت: أشم مسكاً فَلامَت قلت: لومي فيه فاك
فديتك حين ألقاك امهليني فإنّي سوف يخرسني ارتباكي
كأنّ القلب بعدك في ظلامٍ فإن فاجأت أرمِضُه ضياك
لو أن القرط يجذبه جمالٌ إذا لم تشتريه لاشتراك
يطلّ على جنان من خلودٍ ويهمس منك في أُذُني ملاك
وليس المشط في معروش فرعٍ بسجن والشباك ضفيرتاك
أعاوضه الفضا لو كنت طيراً وأُغبنه بسجنٍ في الشباك
ملكتِ عليَّ آفاقي جميعاً سواءً في سكوني أو حراك
أُفكّر إن لقيتك في فراق وإن فارقتِ أشغل في لقاك
وفي مدح (الجواد) أبي (عليٍّ) شغلت عن اقترابك أو نواك
فيا بغداد نور الله هذا وأرضك فيه أشرف من سماك
فقل لابن الرشيد: عداك رشد رميتَ فردَ سهمك دِرعَ شاكي

أتسأل عنه عن سمك وهذا الخبير فسله عن خلق السماك
وشقشقة ابن أكثم لا تهيجي وردّي القهقراءَ إلى وراك
وهذا لا يُلاك لديه فكٌّ ولو أنّ الفضاءِ يكون فاك
ولا عجبٌ هو الله اصطفاه وأنت الشرك خارك واصطفاك
أأُمّ الفضل ويك بأيٍّ عذرٍ ستعتذرين في يوم التشاكي؟!
تركت الدار موصدة عليه وما في الدار من أحدٍ سواك
فعلت وما رحمت له شباباً فهلاً قد رحمت أنين شاكي
وكم قطعوا له رحماً وقربى وهذا القطع عن قطع (الأراك)
وقتلك عن (سقيفتهم) تمشّى وقبلك قتل آباكَ الزواكي
وهب سمّتك أُمّ الفضل لكن تسبّب كل ذلك عن (...)
فأيّ مصابكم نبكي عليه لِسُمٍّ أو لقتلٍ وانتهاك
يزيد على مصائبكم (حسين) فقد رضّته بالطفّ (المذاكي)
عليه قضت أُمية وهو ظام فلا روّى الإله غداً ظَماك
جنيتِ عليه تمثيلاً وقتلاً وليت بأنّ ذلك قد كفاك
فسُقتِ إلى دمشق نِساهُ أسرى وتلطم كل باكيةٍ وباكي

القصيدة الرابعة

في رثاء الإمام عليه السلام للعلاّمة الشيخ قاسم محيي الدين

بكيتُ على رسمٍ دُرِسنَ منازلُه ... وناحت لفرط الوجد فيه بلابلُه
وقفتُ بها والعين تنشر جفنها ... سحاباً وقد سحّت نجيعاً هواطِله
وقد غَالَني الدهر الخؤون بفادحٍ ... به نسفت أطواد صبري زلازله
فأصبحت ترتاد الرزايا حَشاشتي ... ومنّي نجيع الدمع فاضت جداوله
دهتني رزايا قد ألمّت بسيدٍ ... فضائله مشهودة وفواضله
جواد خضمّ الجود أسرار كفّه ... ولا زال تَهمي البرّ سحّاً أنامله
سليل الرضا سبط النبي محمّدٍ ... جواد الورى مَن لا يُخيِّب سائله
أبو جعفر مدحي علاه فريضة ... وإن كبرت عن مدح مثلي نوافله
فبعداً لقومٍ لا تراعي عهوده ... ولم يُرعَ فيه حقّ أحمد خاذله
فكم جَرّعته الهون قسراً فلم يزل ... حليف شجون دمعه سحّ هاطله
وكم ناضلته عصبة بسهامها ... عناداً وبغياً لا تزال تناضله
فأصمت حشا الدين القويم وأنّها ... أصابت إماماً قد تعالت فضائله
وما نقموا منه سوى الفضل والعلى ... فظلّت بفرط الجور غدراً تواصله
فأصبح رهناً للرزايا ومرتمى ... لنيل كفورٍ غالَ بالحتف غائله
فما حفظوا في قربه قرب أحمدٍ ... غداة بعظم المكر قسراً تُخاتله
إلى أن قضى بالسُمّ ظلماً مجرّعاً ... كُؤوس عداءٍ والحتوف مناهله

القصيدة الخامسة

وله أيضاً

إذا رُمتَ الشفاعةَ في المعادِ فَلُذ بحِمى محمّدٍ الجوادِ
شفيعاً للأنام وخير غَوث مغيثاً للورى يوم التناد
به الأملاك قد شرفت وفيه سمت شاؤوا على السبع الشداد
إمام لو دعي المقدورَ وافى لنافذ حكمه سلس القياد
مناقبه الثواقب ليس تُحصى بها اعترف الموالي والمعادي
بأخمصه رَقى أوج المعالي وطاول عرشها سامي المعاد
جواد ما دُعي للجود إلاّ غدت كفّاه تهمي كالغوادي
فلا عجب إذا نعشوا إليه فساطع نوره للخلق هادي
ومَن غير الجواد أبي عليٍّ شفيع الخلق في يوم المعاد
له فضل يفوق الرسل فيه وهل فضل حكى فضل الجواد
فيا لهفي له كم من ملمٍّ أراع حشاه من باغٍ وعاد
وكم من عصبة عَضّت عليه بنان الغيظ من فرط العناد
ألا بُعداً لقوم لم يراعوا عهودكم وجدّوا بالفساد
فكم ساموكم حرباً فسالت دمائكم كمنسَكَب العهاد
عتوا عن أمركم وبَغَوا إلى أن تطامنتم على شوك القتاد
سعيداً عشت في زمن يسير أجَل، ومضيت محمود الأيادي
قضيت بسُمٍّ أُمِّ الفضل غدراً ولم تحفظ لكم حقّ الوداد
قضيت بظلمِ مَنْ ظَلَموكَ صبراً وجرعك العدا أصاب النكاد
بكاك الدين مذ قوّضت حزناً عليك قد اكتسى ثوب الحداد

وفقدك قد أثار جوى لؤيٍّ وغادرها محالفة السهاد
وأشجى قلب خير الرسل حزناً ومنه الدمع منهلّ الغواد
وأذكى في حشا الهادي عليٍّ لظى الأحزان وارية الزناد
وغادر فاطم الزهراء ثكلاً محلّلة يرزئك في السواد
وأبكى المجتبى حسناً وأقذى مصابك مُذ دهى عين الرشاد
وأبكى خير مقتولٍ صريعٍ بكته الأرض مَعْ سبعٍ شداد

القصيدة السادسة

للعلاّمة الشيخ محمد حسين الإصفهاني الغروي

سبحان من جاد على الذوات بمقتضى الأسماء والصفات
فقد تجلّى باسمه الجواد في مصدر الخيرات والأيادي
في عنصر النبوة الختمية بصورة الولاية العلية
حقيقة الأمانة المعروضة رقيقة الديانة المفروضة
صحيفة المكارم الجميلة لطيفة المعارف الجليلة
سرّ النبي خاتم النبوة في العلم والحكمة والمروّة
ومهجة المخصوص بالأُخوّة في الحلم والإباء والفتوّة
سليل ياسين وسبط طاها فقد تعالى شرفاً وجاها
سلالة الخليل في وفائه وصفوة الصفيِّ في صفائه
ساحل جوده هو الجوديّ به نجيّ ربنا نجيّ
بل هو للكليم تاج رأسه في بطشه وفي شديد بأسه
بل هو روح الروح في ابن مريم وهو من الكلام أُمّ الكلم
وحشمة الله رهين نعمته في ملكه وعلمه وحكمته
ولا ترى في الأنبياء مكرمة إلاّ وفيه كل معنى الكلمة
ووجهه مصباح نور النور طلعته منصّة الظهور
ونور وجهه كنور الباري يذهب بالألباب والأبصار
غُرّتُه بارقة الكمال شارقة الجلال والجمال
وعينه في عالم التكوين إنسان عين الحقّ واليقين
وقلبه عرش مليك المعرفة بل عرش من لا اسم له ولا صفة

وصدره خزانة الغيوب في سرّه مسرّة القلوب
لسانه شريعة الأحكام لا بل لسان الوحي والإلهام
لسانه ينطق لا عن الهوى فإنّه من الشديد في القوى
يمثّل النبي في منطقه فإنّ هذا النور من مشرقه
كأنّه أُريد ذاك المنطق هذا كتابنا عليكم ينطق
كلامه أُمّ جوامع الكلم ومنه سرّ الكلّ في الكلّ علم
كلامه هو الكتاب الناطق آياته الغرّ هي الحقائق
حقيقة السبع المثاني ذاته والكلمات كلّها آياته
سرّ عليٍّ في علوٍّ المنزلة فهو إذاً نقطة باء البسملة
وليس عاليات الأحرف إلاّ رموز سرٍّ سرِّه الخفي

وله رحمه الله أيضاً:

وجوده مصباح أنوار الهدى وجوده مفتاح أبواب الندى
دليل أهل الأرض والسماء بل سرّه معلّم الأسماء
هو الجواد لا إلى نهاية وجوده غاية كل غاية
هو الجواد بالوجود الساري وجوده مظهر جود الباري
هو الجواد المحض لا لغاية فإنّه المبدأ والنهاية
وكل ما في الكون فيض جوده والجود كالذاتيِّ في وجوده
ومن بديع جوده الإبداع فإنّه لأمره مطاع
فالمبدعات من معالي هممه والكائنات نبذة من كرمه
وجنّة النعيم من نعمائه وكيف والجواد من أسمائه؟!
هو الجواد بالعلوم والحكم بل كل ما في الكون يَسطُرُ القلم

لــه يــد المعــروف بالمعـــارف فــإنها قـــرّة عـــين الـــعــارف
بل يده البيضا تعالت عن صفة إذ هـي بيـضاء سمـاء المعـرفة
وهـــي يـد الجـــواد بالإفـــاضة أكـــرِمْ بهـــذه الـيـــد الـفيّــاضة
وبـــاب أبــواب المـــراد بـــابـــه والحـــرز مـن كـل الـبلا حجابه
كهف الورى وغوث كلِّ ملتجي في الضيق والـشدّة بـاب الفرج
وكعبـة البيـــت لكـــل ناســك وقـبـلـة الـــضـــراح لـلـملائـك
معتكـــف للتـــاليـــات ذكـــرا مختـلـف المـــدبِّـــرات أمـــرا
وهـــو مـــدار الفـلك الـدوّار ومـركـــز الـثـــابـت والـسـيّـــار
والحجـــب السبـعة سـرّ بابـه والحَـضَـرات الخمـس في قبابه
والعـــرش كـرســـيّ ببــاب داره ومـسـتـوى الـرحمـة في جـــواره
كيـــف وبـــاب الجـود للجـــواد واســـم الجـــواد مـبـدأ الإيجـــاد
وكـم لأربـاب العقـول المرســـلة بـــاب مـن الخير وبـاب الجـود له
كـــل المعالـــي في أئمـة الـــورى هـــو الجـــواد أولاً وآخـــراً
وكـــلهم أسمـــاء حســنى البـــاري والجـــود مـبـدأ الـوجـود الـساري
وكلـهم جـواهـر الكـنز الخـفي واســم الجـــواد مـبـدأ الـتـعـرّف
وكـــل اســـم مـبـــدأ العنـــايـــة واســـم الجـــواد مـبـــدأ وغـايـة
مـن جـاد ســاد فلـــه السيـــادة في مـلـكـوت الـغـيب والـشـهادة
والمكـــرمـــات كلهـــا في الجـــود اكـــرم بـــه مـــن خـلـق محـمـود
عيـــن الرضـــا لا بـــدّ منـــه فيـــه فـهـو إذاً ســـرّ الـرضـــا أبـيـه
بـــل هـو كالكـــاظم في مراتبـــه فـإنّ كظم الغيظ جود صاحبه
يمثِّـــل الصـــادق فيمـــا وعـــدا إذ صـــادق الـوعـد جـــواداً بـدا
يـــمثِّـــل البـــاقـــر في المكـــارم فـــإنّ نـشـر الـعـلم جـود الـعـا لم

يمثِّل السجاد في فضائله ... فإنّ بذل الجود جود باذله
وليس كالشهيد من جواد ... بالنفس والأموال والأولاد
ومَن كعمِّه الزكيِّ المجتبى ... فإنّه الكريم من آل العبا
بل حلمه من جودِهِ العظيم ... فلا أحقّ منه بالتكريم
هو الجواد صفوة الأجواد ... ونخبة الوجود والإيجاد
يمثِّل المبدأ جوداً جوده ... والمثل الأعلى له وجوده
كل مبادي الجود والإيجاد ... لا تنتهي إلاّ إلى الجواد
كأنّ ماء الحَيَوانِ جودَه ... حياة كلّ ممكن وجوده
وليس في الأيدي يد الأيادي ... على الورى إلاّ يد الجواد
ولا يد المعروف إلاّ يده ... فهو لكلّ مصدر مورده
هو الجواد لا جواد غيره ... لا خير في الوجود إلاّ خيره
وجاد بالتكوين والتشريع ... بمقتضى مقامه المنيع
حتى إذا لم تبقَ منه باقية ... جاد بأنفس النفوس الراقية
جاد بنفسه سميماً ضامياً ... نال من الجود مقاماً سامياً
والعروة الوثقى التي لا تنفصم ... تقطّعت ظلماً بسُمِّ المعتصِم
قضى شهيداً وهو في شبابه ... دُسَّ إليه السُمّ في شَرابه
أفطَرَ عن صيامه بالسُمِّ ... فانفطرت منه سماء العلم
وانشقّت السماء بالبكاء ... على عماد الأرض والسماء
وانطمست نجومها حيث خبا ... بدر المعالي شرفاً ومنصبا
وانتشرت كواكب السعود ... على نظام عالم الوجود
وكادت الأرض له تميد ... بأهلها إذ فقد العميد
قضى بعيد الدار عن بلاده ... وعن عياله وعن أولاده

تبكـــي علـــى غربتــه الأمــلاك تـنــوح في صـريـرهـا الأفــلاك
تبكيـــه حـــزناً أعيـــن النجـــوم تـلـعـن قـاتـلـيـه بـالـرجـوم
ونـــاحـــت العقـــول والأرواح بـل نـاحـت الأظـلال والأشـبـاح
صَبّـت عليـه أدمـع المعالـــي هــدّت لـه أطـوادهـا الـعـوالي
بكـــت لـربّـــانيّـــها العلــوم نـاحـت عـلى حـافـظـها الـرسوم
قضـى شهيـداً وبكــاه الجـــود كـــأنّـــه بـنـفـسـه يجـود
يبكـي علـى مصابــه محرابــه كـــأنّـــه أصـــابــه مـصـابـه
تبـــكي الليـالي البيـض بـالضـــراعة ســوداً إلى يــوم قـيـام الـساعـة
تعســاً وبؤســاً لابنــة المأمـــون مـن غـدرهـا لحـقـدهـا المـكـنـون
فـإنّـــها ســـر أبيـــها الغـــادر مـشـتـقـة مـن أســوء المـصـادر
قد نال منها من عظائـم المحن ما ليس ينسى ذكره مدى الزمن
فكـم سعت إلى أبيـها الخـــائن بـه لمـا فـيـهـا مـن الـضـغـائـن
حتـــى إذا تــمّ لهــا الشقـــاء أتــت بمـا اســودَّ بـه الـفـضـاء
سمَّتـه غيــلة بــأمـر المعتصـم والحـقـد داء هـو يـعـمـي ويـصـم
ويـل لهـا ممّـــا جنـــت يداهـــا وفي شـقـاهـا تـبـعـت أبـاهـا
ولا تــحنّنـــت علـــى شبـابــه ولا تـعـطّـفـت عـلـى اغـترابـه
تبّـــت يـداهـــا ويـــدا أبيـهـــا مـصـيـبـة عــزّ الـعــزاء فـيـهـا

القصيدة السابعة

للعلاّمة الشيخ جعفر النقدي

لكم غزلي ومدحي في إمامي　　أبي الهادي (محمدٍ الجواد)
هو البرّ التقيّ، حمى البرايا　　وغيث المجتدي، غوث المنادي
إمام أوجب الباري ولاه　　وطاعته على كل العباد
دليل بني الهداية خير داع　　إلى ربّ السماء وخير هادي
إمام هدىً مقام عُلاه أضحت　　به الأملاك رائحة غوادي
تقبِّل منه أرضاً قد أنافت　　برفعتها على السبع الشداد
من الغرّ الأُولى فيهم تجلّت　　لروّاد الهدى سنن الرشاد
ومَن في فضلهم طوعاً وكرهاً　　قد اعترف الموالي والمعادي
بهم كُتُب السما نطقت وكم من　　حديث جاء من أهل السداد
وقبل وجودِهمْ قد كان يدعو　　بهم قُسّ بن ساعدة الأيادي
تخذتُ ولاءَهُمُ ديناً لأنّي　　رأيت ولاءَهُم خير العتاد
وهم حصني إذا ما ناب خطب　　وهم مغنى انتجاعي وارتيادي
ومنهم نعمتي وهُمُ رجائي　　وهم ذخري الطريف مع التلاد
إذا ما سُدّتِ الأبواب فاقصد　　(جوادَ) بني الهدى بابَ المراد

ترى باباً به الحاجات تُقضى ومنتجعاً خصيب المستراد
ومولىً فيه تَلتَجِئ البرايا لدى الجلي وفي السَنَة الجماد
لطُلاّب الحوائج من نداه تزاحمت العوائد والبوادي
على وُفّادِه كالغيث تَهمي يداه مدى الزمان بلا نفاد
بحار علومه علم البرايا لدى زخّارها شبه الثِماد
رأى دين المهيمن منه شهماً كريم الذبِّ عنه والذياد
فكان بظلِّه في خير أمنٍ به لم يخشَ غائلة الأعادي
وكم ظهرت له من معجزات رآهنّ الحواضر والبوادي
وما ارتدعوا بنو العباس عمّا قلوبهم حوته من عناد
فساموه الأذى حسداً ببغيٍ لهم قد فاق شرّاً بغي عاد
ودَسَّ لقتله سُمّاً ذعافاً زنيم ليس يؤمن بالمعاد
فأغضب ربّه فيما جناه وأرضى (أحمدَ بنَ أبي دُؤاد)
وبات الطهر والأحشاء منه بها نار الأسى ذات اتّقاد
كأنّ فؤاده والسُمّ فيه تقطِّعه ظُبَى بِيضٍ حداد
تقلِّبه الشجون على بساطٍ من الأسقام دامي القلب صادي
ءَأُمّ الفضل لا قُدِّستِ روحاً ولا وُفِّقتِ يا بنتَ الفساد
حكيتِ (جعيدةً) في سُوء فعلٍ فخصمك أحمدٌ يوم التناد

أمثـل (ابن الرضـا) يبقـى ثلاثاً رهـين الـدار في كـرب الـشداد
ويقضي فوق سطح الـدار فـرداً وأنـت مـن الـغـواية في تمـادي
أفتيـان العلـى مـن آل فهـرٍ وأبـطـال الـوغـى يـوم الجـلاد
وأبنـاء المـواضـي والعـوالـي وفـرسـان المـطـهّـمـة الجـيـاد
هلمّـوا بـالمسـوَّمـةِ المذاكـي لـدرك الـثـأر ضـابحـةٍ عـوادي
عليـها كـلّ مغـوارٍ جسـورٍ يـزيـن حـسـامـه طـول الـنـجـاد
فإنّ دمـاءكـم ضاعـت جبـاراً لـدى الطُّلقـاء مـن بـاغٍ وعـادي
وفعـل (بني نثيـلة) فـاق شـرّاً فِـعـال أُمـيـةٍ وبـنـي زيـاد
سقـى الزوراء غيـثٌ مستمـرٌّ وعـاهـد أرضـهـا صـوب العـهـاد
رُبـا أرجـائـها أعلـى مقـامـاً وأزهـى مـن رُبـا ذاتِ العِـمـاد
بقبر ابـنِ الرضـا وأبيـهِ حـقّ لهـا لـو فـاخـرت كـلّ الـبـلاد
هُمـا كهـف النجـاة لمـن رَمَته لـيـالـيـه بـداهـيـة تـآد
كريما محتـدٍ مِـن كـان مثلـي يـؤدُّهمـا فـمِـن كَـرَم الـوِلاد
فمـا زالـت قبورهمـا قصـوراً مـشـيّـدةً رفـيـعـاتِ الـعـمـاد
وما بَرِحت وجـوه بنـي البَغايـا بـأقـلامـي يُـسـوِّدهـا مِـدادي[1]

(١) الإمام الجواد عليه السلام من المهد إلى اللحد للسيد محمد كاظم القزويني: ٣٩٠-٤١٠.

القصيدة الثامنة

للحاج محسن المظفّر

(بـــابَ المراد) ولا كصـــدرك إذ تُؤَم
في حـاجـةٍ رحـبٍ إلـيه الجـمّ ضم
وبـحســـب آمـــال تـــزمّ لغـــايـة
إنّ (الجـــواد) محـطُّ آمـــال تُـــزَم
هـو للـذي وهـب الهـدايـة بـــابه
بـالـرغـم ممّـن بـات يخـتبـط الظـلم
بــــاب لـــــه فـي الآي مـفـاتـــح
فـتح الإلـه بهـا الهـدى وبهـا ختـم
رهــط المبـاهــلة الجـليــلة رهطـــه
أدريـت مـن بهـم المباهل قد خصم؟
أجـر الرسـالـة وِدّهـــم وكفـــى بـه
أمّـــا يـــراع الـفـخـر مـفـخـرة رقـم
ينـحطّ عـن تطهيـرهـــم في آيـــة
التطهير حتى الفضل ينتعل القمم
مـلـــك بـأمـــر الله (جـلّ) متـــوّج
إن كـان تـاج سـواه تعقـده الأُمـم
وقـفٌ علـــى أمـــر المهيـــمن أمـرُه
وببعض مـا عنه نهى مـا كـان هم

متجرّدٍ لله جرّد عزمه
لرضاه مذ هُزءٌ جميعاً بالسأم
ذو طلعةٍ بهر النواظر حسنها
متطلّعات للضياء عليه نم
ذو نشأة أعيى التفكّر كنهها
سبحان من أنشاه من علقٍ ودَم
غذّاه دَرّ العلم قبل فصاله
فنما كما ينمو وبالعلم انفطم
أجرى إليه العلم بالقلم الذي
يجري على اللوح المعلَّم بالقلم
تعنو الشيوخ إلى الصبّي متى استوى
في الدست يشرع الحكومة والحكم
وبحضرة المأمون أفحم سائل
للامتحان أتى فعاد مخيط فم
قد أخرس (ابن أكثم) فانثنى
يومي لمن حضروا بأنّ (العلم) جم
أوما سمعت ما سمعت؟ فدونكم
ثمر الجناية فاجتنوا نكباً وهم
يليانكم ما دمتم لم تقطفوا
من ينعهاغير التحسّر والندم
هلاّ اقتديتم بالأُولى في الآل قد
بذلوا ليخفوا فضلهم أقصى الهمم

نحــلوا العيــون تــمدّ للأعيــان والآ
ذان تـرهـف للـصدى صــدّاً وصـم
ضربوا الستـور حيـالهم كـي يحجبـوا
منهـم عـن البـصر الحـديد بـدورتهم
وأبـــيتـــم إلاّ انتـــدابـــي ضـــــلّة
للـنـدب كـم خصـم بحجّته الخضـم
فلكـم تبصّــر ذو عمـــىً فيمـــا لــه
فـبـهـتّـمـوا كـم غـافـلٍ ولـكـم كـم
أعلنتــم الســرّ الذي كتمــوا كمـــا
قـاضي قضـاتكـم الحـقيقة قـد كـتم
فجرى بمجرى الجهـل سابـق علمـــه
بمـصــيره مـتـعـثّـراً حــتى ارتـطـم
هو ذا مفـاد (إشـارة) سبقـــت لهـم
لتنوب عـن فهمه الـذي الحجر التقم
نكــروه وهـــي بحـــالها قـد فسّـــرت
من هيأة (المندوب) ما كـان (ابنهم)
ثـــم انبـرى (ذو التـاج) ثمّـة قائـــلاً
والـكـلّ تحسـب مـن وجـومٍ كالصنم
لكأنّ طيـراً قـد عــلا تلـك الــرؤو
س فمَن بحضرته سوى (المولى) وجم
وخــــطـــابــه للرهــط لامــوه بمَــن
بـأبـيـه قـبـل مـلامـهـم فـيـه ألم

يالائِمِــيَّ وعــذركم مــن جهلــكم
فيما علمتُ فلو علمتم لم أُلم
جاريتكم كي تفهموا من أمره
ما غمّ بعدُ عليكم وخلاه ذم
هذا ابن ورثت نبوة العلم غير
مدافعين فما لنا ولمن ظلم
ورثوه منه حيث كان نصيبهم
مهما الخلاف من الخلا لهم حرم
خلق الخلاف حديث (لا) وجميعهم
ترك المهمّ مع الخلاف إلى الأهم
فرضوا الحديث مخالفاً للذكر إذ
في الإرث مفترضاً لمثلهم حكم
هذا سليمان النبي ومثله
يحيى وإرثهما من (العلم) الأعم
ما يصنع التأويل والعرب الأُولى
تركوا الفصيح إلى رطانات العجم؟!
في ظاهر اللفظ الذي هو حجة
عند الخصام لمن لحكمه احتكم
دعوى أبيها (الزوج) قوم قيلها
وسكوت عمّ الجدّ فريته دعم
ولَئِنْ زوى ميراثهم فبحسبهم
علم زواه الله عن (زوج وعم)

علـم لــه حتــى المعانـــد مذعـــن
فمقالكم (أمـهـلـه..) سُـمّ في دسم
فهنا لكم مرقت مـــن الأكَمِ العيـــو
ن فـأبـصـرت شبـحـاً تـسـتّر بـالأكـم
مــاذا يريــد تــرون وهـــو محــاضـــر
في علمه بالنبش عن تلك الرمم؟
همســـــاً لبعضـــهم ألا فلتـقنـــطوا
(فـابـن الـرضـا) لـولايـة العـهـد اسـتـلـم
يــــا للمفــــاجـــأة البغيضـــة أنّه
فـيـهـا أعــاد الـلـحـم منّـا لـلـوضـم
هـــانـــه للابـــن بعـــد أبيـــه قـــد
أعـطـى زمـام الأمـر أقـحـم أم خـرم
بنيــــاهـــم في مثـــل ذاك وكلـــهم
ممّــا أطــار الــلـبّ يـنـفـخ في حمـم
وإذا المحاضر عنـد فصـــل خطابـــه
يـصـل الحـديـث بمـا عـلـيـه قـد عـزم
فتراه يقبــل بالحديــث علــى الــذي
مـن أجـلـه شَمـل الحـضـور قـد الـتـأم
يا بن الرضا وبكَ الرضــا أعرض فــد
يتك وابنتي زوّجتُ منك رضيتَ أم؟
فـــإذا تـــألّق نجـــم سعـــدي طالعـــاً
وقبلت (أُمّ الفضل) زوجاً قُل: نعم

واخطب لنفسك حيث شئت فمهرها
مهما غلا مني فلا يعلوك هم
فأجابه المولى بما انبسطت له
نفس الأمير كمن تنفّس عنه غم
ولقد تحوّل حيث هُيِّء كلّما
أوحى به لأمينه نحو الخدم
فبدوركم يا غلمتي هيّا اقبلوا
بنثاركم فالطيب فالعقد انتظم
هيّا انثروا في الحاضرين وعطِّروا
فالبِشر كلّ الكائنات أراه عم
شكراً لذي نعم أراني ضوؤها
عند اقتران (النيّرين) مدى النعم
فإذا الندى ونده الفياح قد
ملأ الفضا مترنّح من خمر شم
وإذا البلاط وكلّ شيء ضاحك
حتى (الرقاع) كثغر حسناء ابتسم
والرشد وقع بابتهاج مشعراً
بسروره الهادين في برٍّ ويم
رقصت قلوب المهتدين لضربه
بنياطها لا الضرب في أوتار بم
أُنشودة الأفراح لحّنها الوفا
ءُ بثانيَ (العهدين) في أشهى رَنم

جـــارى الموقّـــع صـــوتـــه فـــكأنّـما
مـــزمـــار (داوود) أعـــارّهمـــا الـنـغـم
والكـــون يرفـــل في مطـــارف غبـــطـــة
خيطت بهدب العين لا بذوات سُم
بل كل ما في الكون تحسب من هوى
في الـعـرس أفـنـانـاً تـنـسّـمت النَسـم
عرس تـحـامـاه الخيـال فلـم يُطِـق
تـصـويـره لـلمعـجمـين بمـا رسـم
عـــرس تـوهّمـــه الجميـــع سهـــادةً
لشتيتهـم شعـث الجـمـيع بهـا يلـم
عـــرس بـــه الدنيـا تـــزفَ وضيئـــة
لـلـديـن مـن أنـــواره الـبـدر استـتـم
بغداد لم تشهد، وكم شهدت من الأ
عـراس كـالعـرس العـبوس لـه بَسَم
بغـــداد وهـــي بعصرهـــا الذهبيّ لـــم
تـــرّ مثـلـه نـثـر الـفـرائـد قـد نظـم
لـــكنّنـــي لنتيجـــة حصلت لـــه
أدعـو وإن عـجلت ومـن يدعـو عتـم
يا ويـح ذاك العــرس ينقصـه الهنـــا
يـا لـيت لـو تُعطى المنى مـا كـان تم
فلقـد جنـــى مـــرّاً وأعقـــب لوعـــة
مَنَحا الشجى حلقي وقلبي للضرم

يا ويحَ أُمّ الفضل غادر سمها
إنسان عين الفضل ثم صريع سُم
يا ويحها خبثت فغادر فضلها
أما تبنّت بعده الغدر الأذم
غدرت بأرعى العالمين لعهده
راعت بفعل الشرر رغبة شرّ عمّ
تركته منفرداً يجود بنفسه
في الدار بارحها القطين خلا الألم
تركته يلتمس الممرِّضَ لم يجد
فيها سوى سقم يمرّض ذا سقم
الله من فعل القضاء بمرتجى
لدفاعه ولحلّه إمّا انبرم
ذو الوجه عند الله يصبح وجهه
يا للأسى كالآس غصنه الشيم

القصيدة التاسعة

للشيخ محمد جواد قسّام

بكـم آل بيت الله يُستـدفع الضـرُّ
وفي فضلكم قـد صـرّح الـوحي والـذكر
فأنتـم هـداة الخلـق للحـقّ والهـدى
وفيكـم ومنكـم لا لغيركـم الفخر
تشيَّد هذا الديـن في سيـف جـدِّكم
ولـولاه لم يخضع لتصديقه الكفر
فمـا أسـلمـوا إلاّ لحقـن دمائـهم
ولّما التقى الجمعانِ في (أُحـدٍ) فرّوا
وجـاهـدتُمُ في الله حـقّ جهـاده
فبـان لـه في بـذل جـهدكم النصر
وأنتـم رعـاة النـاس حقّـاً وحبّـكم
مـن الله فـرض كيف يُعصى لكم أمـر؟!
صبرتـم علـى جـور الطغـاة وإنّمـا
سلاح رجـال المصلحين هـو الصبر
عزيز على الإسلام مـا حـلّ فيـكم
من الضيم ما يُشجى لسامعه الذكر
فبيـن قتيـل بـالطفـوف معفّـرٍ
تـوزّع في أحشائه البيض و السمر

وبيــن عــليــل بـالقيــود مصفّــدٍ
يـرى حـرماً في الأسـر سـائقـهـا زجـر
ولهفي لكم بالسيف بعض وبعضكم
بسُمٍّ قضى هـذا لَعَمري هـو الجـور
وإن أنسَ لا أنسَــى (الجواد محمـداً)
(أبـا جـعـفرٍ) مـن فـيض أنملـه بحر
معــاجزه كالنجــم لاحــت منيــرةً
فـليس لهـا نـكر ولـيس لهـا حصر
أقــرَّ بهــا الحُسّــاد بالرغــم منهــم
فسل عنه (يحيى) حين حلّ به الحصر
لقد أشخصــوه عــن مدينــة جــدّه
لـبغـداد قـهـراً عـنـدما دُبِّــر الأمـر
ودسّــوا له سُمّــاً علــى يــد زوجــةٍ
بها مـن أبيهـا كـامِنٌ ذلـك الغـدر
فـظـلّ يعاني السُمَّ في الـدار وحــده
ثـلاثـةِ أيــامٍ أمـا عـلِمَـت فِـهـر؟!
قضى فوق سطح الدار والطير فوقـه
تـظـلّــلـه كـيــلا يــؤلِّـمــه الحــرّ
ولكــن علــى وجــه الصعيــد مجـرَّداً
بـقـى جــدّه ثــاوٍ وأكـفـانـه العَفـر

المثوى الطاهر في ذمة التاريخ

ويشمخ المرقد الطاهر للإمام الجواد بجوار جدهِ موسى بن جعفر رغم عادية الزمن وعواصف الأهواء، وتتداعى مؤامرات الأعداء كلّما تشهق منائر المجد سمّواً، وتخلد الولاء كلما تداعت محاولات الأعداء..

وهكذا تحكي عمارة المرقد الشريف للإمام الجواد وجده موسى عليهما السلام تأريخ معاناة الأُمّة ومحنة الإمامة:

١- كانت عمارة المرقد لا تتعدى عن قبرٍ يضم رفاة الإمامين عليهما السلام في مقابر قريش يرتاده شيعته على خوفٍ ووجل خشية أُولئك الذين يراقبون شيعة الإمام ويمنعونهم من مزاولة حقوقهم في تجديد العهد للإمامين عليهما السلام.

٢- وتعمّر البقعة المباركة بالدور المحيطة بالمرقد الشريف وتزداد أعداد الزائرين المرتادين للبقعة المباركة أيام الديالمة.

٣- سنة ٣٣٦هـ، يجدد معز الدولة أحمد بن بويه عمارة ضريحي الإمامين، ويأمر بتعيين الخدم والجند لتأمين خدمات المرقد وما تحتاجه جماهير الزائرين المحتشدة في البقعة المباركة.

٤- سنة ٣٦٩هـ، يعمّر عضد الدولة البويهي المشهد الطاهر بعمارةٍ جديدة.

٥- سنة ٤٤٣هـ، تقع الفتنة التي أدت إلى حرق المرقد الشريف ومحاولة الرعاع حفر القبر الطاهر ونقل الجثمانين الشريفين إلى مقبرة أحمد بن حنبل لكن شاء الله تعالى أن يحفظ هذا الصرح العظيم لقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فلم يأذن في خرابها، بل أذن في أن تبقى خالدة بخلود الإيمان، شامخة بشموخ المجد والولاء.

٦- في سنة ٤٤٦هـ، جدد المرقد الطاهر بعد الفتنة في بغداد.

٧- في سنة ٤٩٠هـ، عمارة أبو الفضل الأسعد بن موسى القمي أحد الوزراء السلجوقيين.

٨- سنة ٥١٧هـ، تعرض الغوغاء إلى المرقد الطاهر محاولة منهم لهدمه وحرقه وذلك أيام المسترشد بالله العباسي، فعاثوا في الأرض الفساد وعمدوا إلى نهب المرقد وسرقة ما فيه من النفائس.

٩- سنة ٥٧٥هـ، كانت عمارة الناصر العباسي فقام ببناء المرقد الشريف وتعميره وتزيين الصندوق وبناء المآذن وتوسعة الصحن الشريف وبناء حجراته.

١٠- تعرض المرقد الطاهر إلى حريق في أيام الظاهر بأمر الله العباسي فاحترقت الأثاث والكتب.

١١- في سنة ٩٦٦هـ، كانت عمارة الشاه إسماعيل الصفوي فجدد المشهد الطاهر وبنى القبتين الشريفتين.

١٢- في سنة ١٠٤٧هـ، نهب جنود العثمانية المرقد الطاهر بعد دخول السلطان العثماني مراد الرابع إلى بغداد وسرقوا نفائس الحرم الشريف ونهب قناديل الذهب والفضة.

١٣- سنة ١٢١١هـ، كانت عمارة الشاه القاجاري محمد شاه بتذهيب القبتين والمنائر والأيوان الصغير.

١٤- وفي سنة ١٢٨٧هـ، عمارة السلطان ناصر الدين شاه وأمر بنصب الضريح الفضي على الضريح الفولاذي.

١٥- وفي سنة ١٢٩٣هـ، قام فرهاد ميرزا عم ناصر الدين شاه ببناء الصحن الشريف وتجديد عمارته.

١٦- وفي سنة ١٤٢٥هـ جدد الضريح الطاهر الذي أوعز ببنائه المرجع الديني الأعلى آية الله السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي وأشرف على إنجازه جمع من الفضلاء في الحوزة العلمية في قم وكان لجهد السيد جلال فقيه إيماني وولده حجة الإسلام السيد محمد جلال فقيه إيماني الأثر البارز في إنجاز هذا الضريح الرائع.

وقد كُلفت بنظم قصيدة كُتب بعضها على الضريح الطاهر وهي:

يا جوادَ الآلِ يا نعمَ الجوادْ | يا سميَّ المصطفى خيرَ العبادْ
يا ابنَ موسى والرِضا ضاقَ الفؤاد | قد أنختُ الركبَ في بابِ المراد

وسعيتُ اليومَ أرجو حاجتي

حاجتي تُقضى فَما خابَ الوِفاد | مسّني الضُرُّ فَلا أملِكُ زادْ
وَفَزِعْتُ لائِذاً في خَيْرِ واد | قد رَجَوتُ الفوزَ في يَومِ المِعَادْ

بِبَني الزَهرا ضَمِنتُ عُدَّتي

عُدَّتي في الحَشْرِ حُبُّ المُرتضى | وَلُطهرٍ وَزَكيٍ وَشَهيدٍ قَدْ مَضَى
وَأبي الباقرِ واْبنَيهِ وَمُوسى والرِّضا | وَتَقيٍّ وَنقيينِ وَمَهديٍّ قَضَى

مُحكَمُ الذِكرِ فَهاكُمْ حُجَّتي

حُجَّتِي في كلِّ حينٍ لائحهْ | لِهوى الآلِ شُجُوني واضِحَهْ
وأَتيتُ بذنوبٍ فادحهْ | وسعيتُ بدموعٍ سائِحهْ

زائِرَاً موسَىْ لِتُجلَى كُربَتي

كُربَتِي تُجْلَى بِموسَى الكاظِم قَدْ تَمَسَّكتُ بِحَبلٍ دائِم
وَتَوجّهتُ بِقَولٍ عاصم ما رَواهُ عالِمٌ عن عالِمِ

قَدْ خَلِفتُ الثُقلَ فيكُم عِترَتي

عِترتي تُنجي مِن نارِ الحَريقْ يَومَ يَمتازُ فَريقٌ عَن فَريقْ
واعتَصمْتُ بِحِمى رُكنٍ وَثيقْ يَومَ لا يُغْني رَفِيقٌ عَنْ رَفِيقْ

بِسلامٍ ادخلوها جنتي

(قبرُ مُوسى وابنُه مِن جَنَّتي)

السيد محمد علي الحلو

الفهارس الفنية

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث الشريفة

مصادر الحديث

١- الآداب السلطانية.

٢- الاحتجاج:، أحمد بن علي بن أبي طالب طبرسي (من أعلام القرن السادس): دار الأُسوه، قم، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ.

٣- الأخبار الطوال: أحمد بن داود الدينوري، (ت٢٨٢هـ).

٤- أدب الطف.

٥- الإرشاد: الشيخ محمد بن محمد بن النعمان (المفيد) (ت ٤١٣هـ): مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٦- أعلام الدين: الحسن بن أبي الحسن الديلمي، (من أعلام القرن الثامن الهجري) تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٧- أعلام الهداية: لجنة التألين، نشر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٨- أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين (ت ١٣٧٣هـ.ق) تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

٩- الأغاني: أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، (ت ٣٥٦هـ).

١٠- إكمال الدين: الشيخ الصدوق، (ت ٣٨١هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

١١- الأمالي: الطوسي: محمد بن الحسن طوسي (ت ٤٦٠هـ): تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، نشر دار الثقافة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.ق.

١٢- الأمالي: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان العُكبري البغدادي (شيخ مفيد ٤١٣هـ): تحقيق: حسين استاد ولي وعلي أكبر غفاري، دار النشر الإسلامية.

١٣- الإمام الجواد من المهد إلى اللحد: محمد كاظم القزويني (معاصر).

١٤- الإمام محمد الجواد سيرة وتأريخ: عدنان الحسيني (معاصر).

١٥- بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي (ت١١١١ هـ.ق): مؤسسة الوفاء، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.ق.

١٦- بصائر الدرجات: محمد بن الحسن الصفار (ت٢٩٠هـ): مؤسسة الأعلمي، افست، طهران، الطبعة الثانية، ١٣٧٤ هـ.ق.

١٧- تأريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٨- التأريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

١٩- تأريخ التمدن الإسلامي.

٢٠- تأريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري، (ت٣١٠هـ).

٢١- تأريخ عصر الخلافة العباسية: يوسف العشر (معاصر).

٢٢- تحف العقول: الحسن بن علي الحراني (من أعلام القرن الرابع): تحقيق علي أكبر غفاري، دار النشر الإسلامية، قم، الطبعة السابعة، ١٤٢٥هـ.

٢٣- التوحيد: الشيخ الصدوق (٣٨١هـ.ق): دار النشر الإسلامية، قم، الطبعة السابعة، ١٤٢٢ هـ.ق.

٢٤- الثاقب في المناقب: محمد بن علي الطوسي (ابن حمزة)، (من أعلام القرن السادس)، نشر مؤسسة أنصاريان، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٢٥- ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ): حسين أعلمي، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤١٨هـ.ق.

٢٦- حياة أولي النهى.

٢٧- الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي (ت٥٧٣هـ.ق): تحقيق ونشر مؤسسة إمام المهدي (عج)، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.ق.

٢٨- الدرة الباهرة: محمد بن مكي (الشهيد الأول) (ت ٧٨٦هـ) تحقيق جلال الدين علي الصغير.

٢٩- ديوان السيد الحميري: إسماعيل بن محمد الحميري، (ت ١٧٣هـ)، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٠- رجال الكشي: محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ): وزارت إرشاد إسلامي، طهران، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.ق.

٣١- شرح احقاق الحق: للسيد شهاب الدين المرعشي النجفي().

٣٢- عصر المأمون: أحمد فريد رفاعي.

٣٣- عوالم الجواد عليه السلام: تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي (عج)، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٤- عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ.ق): منشورات شريف الرضي، قم، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ.

٣٥- الغدير: عبد الحسين الأميني (ت ١٣٩٢هـ.ق): مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.ق.

٣٦- الغيبة: محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠هـ)، نشر مؤسسة المعارف الإسلامي، قم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ.

٣٧- فرائد السمطين: إبراهيم الجويني الخراساني، (من أعلام القرن السابع والثامن الهجري)، نشر دار الحبيب، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٣٨- الفصول المختارة: محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (المفيد ٤١٣هـ): تحقيق: علي مير الشريفي، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

٣٩- الفصول المهمة: علي بن محمد بن أحمد المالكي (ابن الصباغ)، (ت ٨٥٥هـ) نشر دار الحديث، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٠- الكافي: محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ.ق): علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، تهران، الطبعة السادسة، ١٣٧٥هـ.ش.

٤١- الكامـــل في التأريخ: عزّ الدين أبي الحســـن علي بن أبي الكرم الشـــيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ.

٤٢- كشـــف الغمة: علي بن عيســـى الأربلي (ت ٦٩٢هـ.ق): أحمد الحيتي، منشورات شريف الرضي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.ق.

٤٣- لسان العرب: لابن منظور، محمد بن المكرم بن أبي الحسن (ت ٧١١هـ): مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

٤٤- المجدي في أنســـاب الطالبيين: علي بـــن محمد العلوي العمري (من أعلام القرن الخامس الهجري).

٤٥- مختصر أخبار شعراء الشيعة: للمرزباني الخراساني.

٤٦- مدينة المعاجز: الســـيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ): مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٧- مروج الذهب: علي بن الحسين المسعودي، (ت ٣٤٦هـ).

٤٨- معجم رجال الحديث: الســـيد الخوئي (ت ١٤١١هـ.ق): أفست، مركز نشر الثقافة الإسلامية، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ.ق.

٤٩- معجم شعراء الحسين عليه السلام.

٥٠- مقاتل الطالبيين: أبي الفرج الأصفهاني، (ت ٣٥٦هـ).

٥١- مناقب آل الرسول: للنجف آبادي.

٥٢- مناقب ابن شهر آشوب: محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ.ق): تحقيق يوسف البقاعي، منشورات ذوي القربى، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.ق.

٥٣- منتهى الآمال: عباس القمي، (ت ١٣٥٩هـ) نشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الخامسة، ١٤٢٢هـ.

٥٤- مهج الدعوات: علي بن موسى بن طاووسي، (ت٦٦٤هـ)، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٤هـ.

٥٥- موسوعة الإمام الجواد عليه السلام: السيد الحسيني القزويني.

٥٦- نزحة الناظر وتنبيه الخاطر: حسين بن محمد الحلواني (من أعلام القرن الخامس الهجري)، قم، ١٤٠٧هـ.

٥٧- نور الأبصار: مؤمن الشبلنجي، (من أعلام القرن الثالث عشر الهجري)، منشورات الشريف الرضي، قم.

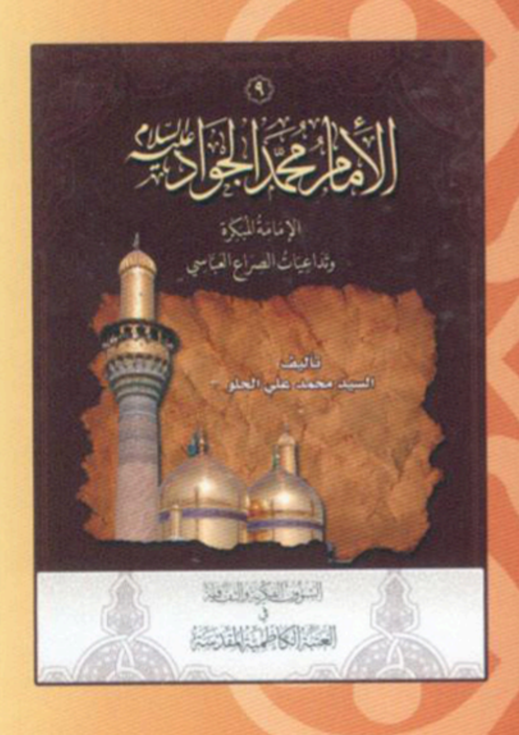
٥٨- وسائل الشيعة: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ.ق): تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت، قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.ق.

٥٩- وفاة الإمام الجواد عليه السلام: عبد الرزاق المقرم.

فهرس محتويات الكتاب

كانت إمامة أبي جعفر تعنى برعاية آبائه.. وعناية أسلافه المعصومين.. أنّها وصاية تتعدّى تقليدية الأعراف الأُسرية في الحفيد القادم... وكان (محمد) أملَ من سبقه ليقوم بالأمر.. فلعلّ (محمداً) الصبيّ سيعاني صخب المشكّكين وضجيج المعترضين في الإمامة المبكّرة.. التجربة الأولى... والعملية الجديدة في الإعجاز الإلهي تتعدّى حسابات أولئك الذين تتزعزع في نفوسهم إرادة التسليم للغيب، والإذعان للمعجزة...

كانت بوادر الإمامة القادمة من ثنايا الغيب تحمل أسرار التحدّي للوراثة الملوكية في بني العباس... وفي بني أُميّة من قبل... فالوراثتان الأُموية والعباسية ترتسم فيهما ملامح كسروية في الطاعة وقيصرية في التسليم، فكسرى يرث كسرى، وقيصر محلّ قيصر، والجميع يغضّ الطرف عن صلاحية المورّث وأهلية الوريث.. إنّها تقليديةَ الملك، وأعراف السلطنة في أولئك القياصرة والأكاسرة.. وفي هؤلاء الأُمويين والعباسيين.. فالجميع تجمعهم الوراثة الدنيوية، وليست هي وراثة إلهية كما يزعمون.. إذن إمامة (محمد) ستكون تحدّياً لبني العباس، وإبطالاً لأكذوبتهم في وراثة رسول الله.





زورونا www.aljawadain.org
راسلونا fikriya@aljawadain.org